الفِصَامُ المُبتَدع

بَيْنَ

أهل الفِقه وَأهل الحَديْث

عَقيل بن محمَّد بن زيد المقطري

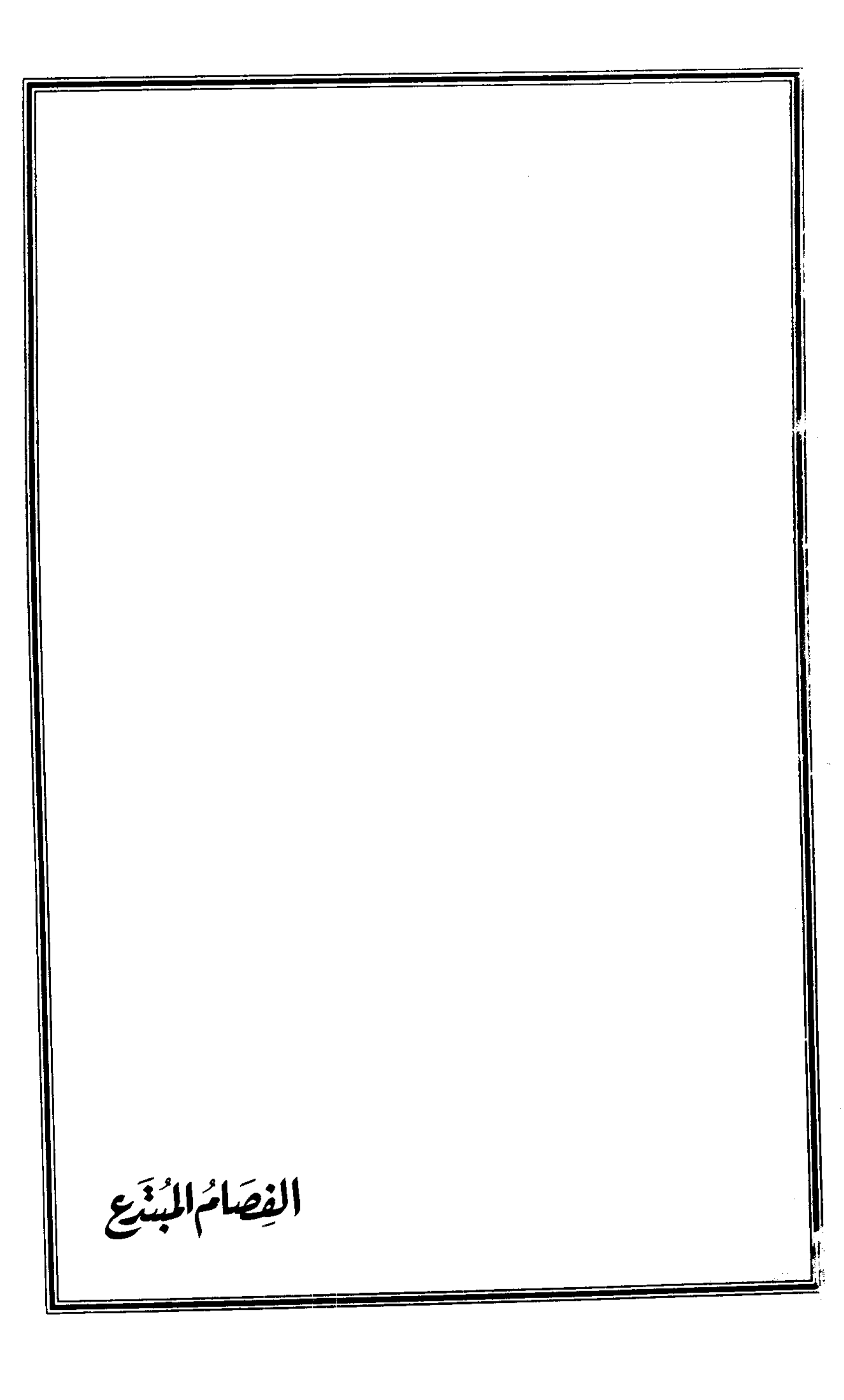
دار ابن حزم

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٨٣١٣٣١


الفصام المبتدع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾.

أما بعد فإن أحسن الحديث كلام الله وخير الهدى هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعه وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد:

فإن الله تعالى إذا أراد بعبد من عباده خيراً فقهه في الدين كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**» فالفقه في الدين مرتبة عالية ومنقبة عظيمة لمن اتصف بها بحق.

ولقد قيض الله لهذا الدين رجالاً يبلغونه إلى الناس فنبغ جمع من الصحابة فبلغوا دين الله للتابعين فنقله التابعون إلى من بعدهم ونبغ من التابعين جمع كالإمام سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ونبغ ممن جاء بعدهم، جمع منهم الأئمة الأربعة.

وهؤلاء جميعاً جمعوا بين علمي الرواية والدراية.

هذا وقد بدى في زمن الأئمة الأربعة من تخصص لجمع الروايات والأسانيد وترك التفقه في الدين. وآخرون تخصصوا في الفقه إلا أن أكثره كان مبنياً على الرأي والقياس

(المعتبر وغير المعتبر) وتركوا تتبع الأحاديث والآثار فأدى ذلك إلى نبز كل فريق بما عند الآخر من النقص حتى وصل بهم الحال إلى بعض الألفاظ الجارحة وكان الأكمل لكل فريق أن يتمم ما عنده من النقص فإن لم فيستفيد كل فريق من الآخر من باب قول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ ويعرف كل فريق ما للآخر من المناقب والفضائل.

ولا شك أن لأهل الأهواء والبدع اليد الطولى في إذكاء نار الفرقة بين الفريقين.

واستمرت هذه الحالة من التراشق بالتهم منذ ذلك الزمن إلى عصرنا هذا تهدأ أحياناً وتشتد أخرى مما أدى إلى إصابة هذه الأمة بالوهن الذي أعاقها عن القيام بدورها.

وهذه الظاهرة توجد بشكل واضح في بلاد الهند والباكستان وآخر من تزعم كبر هذه القضية وأذكى نارها في العالم الإسلامي هو محمد الغزالي في كتابه الأخير (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) وكان الواجب يحتم عليه أن يسلك مسلك المصلح بين الفريقين كما فعل الإمام الخطيب البغدادي رحمه الله والذي اتضح من صنيع الغزالي هو التهجم على أهل الفقه وأهل الحديث وأنه رجل صاحب

هوى ليس له ضابط يضبطه وقد رد عليه جمع من أهل العلم والحمد لله.

وسأحاول في هذه الرسالة إن شاء الله تعالى أن أسلط الضوء على هذه القضية.

وقد قسمتها إلى مقدمة وتسعة أبواب كالتالي:

الباب الأول: جانب الحديث.

الفصل الأول: من هو المحدث.

الفصل الثاني: مدح أصحاب الحديث.

الفصل الثالث: فيمن قدح في أهل الحديث.

الفصل الرابع: في ذم المبغضين لأهل الحديث.

الباب الثاني: جانب الفقه.

الفصل الأول: من هو الفقيه.

الفصل الثاني: فضل الفقهاء.

الفصل الثالث: في مدح الفقهاء.

الباب الثالث: الأصل أن أهل الحديث هم أهل الفقه.

فيه أقوال أهل العلم في ذلك.

١ ـ ابـن الجـوزي. ٢ ـ أبـو ثـور. ٣ ـ الخطيـب البغدادي. ٤ ـ الشيخ عبد المحسن العباد.

الباب الرابع: حقيقة الفصام بين الفقه والحديث.

أقوال أهل العلم في ذلك.

١ ـ ابن الجوزي. ٢ ـ الخطيب البغدادي. ٣ ـ الإمام الخطابي. ٤ ـ الدكتور الطحان.

الباب الخامس: الفقهاء يكملون المحدثين.

أقوال أهل العلم في ذلك.

١ ـ الإمام الخطيب. ٢ ـ الإمام الخطابي. ٣ ـ الإمام أبو عاصم النبيل. ٤ ـ الإمام علي بن المديني. ٥ ـ الإمام الشوكاني. ٦ ـ الإمام الرامهرمزي. ٧ ـ الزمخشري.

الباب السادس: نماذج من المحدثين غير الفقهاء.

نقول عن أهل العلم في ذلك.

١ ـ الإمام الخطابي. ٢ ـ ابن الجوزي. ٣ ـ الخطيب البغدادي.

الباب السابع: فضل من جمع بين الرواية والدراية.

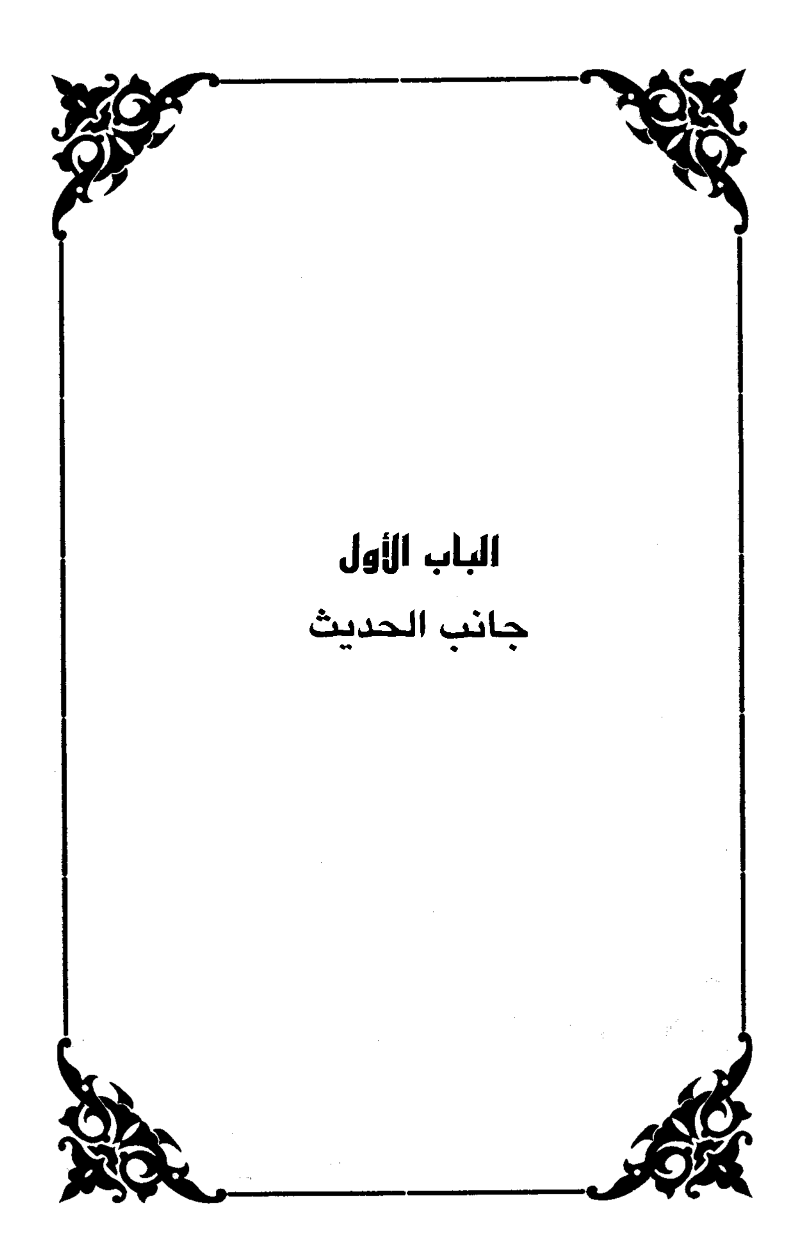
الباب الثامن: نصيحة لطلاب العلم.

الباب التاسع: علاج هذه الظاهرة.

ثم الخلاصة.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذه الرسالة وأن يجمع كلمة المسلمين ليقوموا بدورهم الذي حملهم الله إياه أنه سميع مجيب. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتب: أبو عبد الرحمن عقيل بن محمد بن زيد المقطري



الباب الأول

جانب الحديث

من هو المحدث؟

قال التاج ابن يونس في شرح التعجيز: (إذا أوصى للمحدث تناول من علم طرق إثبات الحديث وعدالة رجاله لأن من اقتصر على السماع فقط ليس بعالم)[1] وكذا قال السبكي في شرح المنهاج وقال الزركشي: (أما الفقهاء فاسم المحدث عندهم لا يطلق إلا على من حفظ سند الحديث وعلم عدالة رجاله وجرحهَا دون المقتصر على السماع)[1].

وقال الرافعي وغيره: (إذا أوصىٰ للعلمَاء لم يدخل الذين يسمعون الحديث ولا علم لهم بطُرقه ولا بأسماء الرواة والمتون لأن السماع المجرد ليس بعلم)[1].

وقال السبكي في معيد النعم ومبيد النقم: (إنما المحدث من عرف الأسانيد والعِلل وأسماء الرجال والعالي

(١) انظر التدريب جـ ١ ص ٤٣.

والنازل وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتون وسمع الكتب الستة ومسند أحمد بن حنبل وسنن البيهقي ومعجم الطبراني، وضم إلى هذا القدر أَلف جزء من الأجزاء الحديثية، هذا أقل درجاته. فإذا سمع ما ذكرناه وكتب الطباق ودرس على الشيوخ وتكلم في العلل والوفيات والمسانيد كان في أول درجات المحدثين ثم يزيد الله من يشاء ما يشاء)[1].

وأخرج ابن السمعاني في تاريخه بسنده عن أَبي نصر حسين بن عبد الواحد الشيرازي قال: (العالم الذي يعلم المتن والإسناد جميعاً، والفقيه الذي عرف المتن ولا يعرف الإسناد والحافظ الذي يعرف الإسناد ولا يعرف المتن، والراوي الذي لا يعرف المتن ولا يعرف الإسناد)[2].

وقال ابن سيد الناس: (وأما المحدث في عصرنا فهو من اشتغل بالحديث رواية ودراية وجمع رواة واطلع على كثير من الرواة والروايات في عصره وتميز في ذلك حتى عرف فيه خطه واشتهر فيه ضبطه، فإن توسع في ذلك حتى عرف شيوخه وشيوخ شيوخه طبقة بعد طبقة بحيث يكون ما

---

(١) انظر التدريب ١/ ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) انظر التدريب جـ ١ ٤٤.

يعرفه من كل طبقة أكثر مما يجهله منها فهذا هو الحافظ، وأما ما يحكى عن بعض المتقدمين من قولهم: كُنَّا لا نعد صاحب حديث من لم يكتب عشرين ألف حديث في الإملاء فذلك بحسب أزمنتهم) انتهى[١].

وأما من اشتغل بتحصيل الأجازات ورواية الحديث بإسناده عن شيوخه فحسب فإنَّما يسمى مسنداً فالمحدث أرفع منه)[٢].

قلت: وهذا ما وقع فيه البعض في هذه الأزمان المتأخرة كما حصل لبعض المتقدمين: قال السبكي: (وإنما كان السلف يستمعون فيقرؤون فيرحلون فيفسرون ويحفظون فيعملون)[٣] وقد قال بعض الظرفاء في الواحد من هذه الطائفة[٤] - أي التي تعني بتحصيل الأجازات ورواية الأحاديث بالأسانيد فحسب:

ومحدث قد صار غاية علمه

أجزاء يرويها عن الدمياطي

---

(١) انظر التدريب ١/ ٤٨.

(٢) انظر التدريب ص ٤٣.

(٣) انظر التدريب ١/ ٤٦.

(٤) انظر التدريب ١/ ٤٧.

وفـــلانـــة تـــروي حـــديثـــاً عـــاليـــاً
وفـــلان يـــروي ذاك عـــن أسبـــاط
والفـــرق بيـــن غـــريبهـــم وعـــزيـــزهـــم
وأفصـــح عـــن الخيـــاط والحنـــاط
وأبـــو فـــلان مـــا اسمـــه ومـــن الـــذي
بيـــن الأنـــام ملقـــب بسنـــاط
وعلـــوم ديـــن الله نـــادت جهـــرة
هـــذا زمـــان فيـــه طـــي بســـاط

مدح أصحاب الحديث

عن معاوية رضي الله عنهما أَنَّ النبي ﷺ قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» متفق عليه. فهذا الحديث ظاهر في مدح أصحاب الحديث الفقهاء فيه فإن مفهومه من لم يرد الله به خيراً لم يفقهه في الدين.

وفي الحديث الصحيح أنَّ النبي ﷺ قال: «ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع».

استدل به الخطيب على أنَّ أصحاب الحديث هم الذين قاموا بمهمة التبليغ وكان هذا من فضائلهم.

وعن معاوية بن قرة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «لا يزال ناس من أُمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة».

قال ابن المبارك وعلي بن المديني والبخاري: هم أصحاب الحديث.

وقال أحمد بن سنان: هم أهل العلم، وأصحاب الآثار.

قال الإمام أحمد: إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث فلا أدري مَنْ هم؟ انظر شرف أصحاب الحديث (٢٦ ـ ٢٧).

قال الحاكم رحمه الله كما في مقدمة كتابه: معرفة علوم الحديث: بعد أن ذكر الحديث السابق وتفسير الإمام أحمد له: وفي مثل هذا قيل: من أمر السُّنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحق. فلقد أحسن أحمد بن حنبل في تفسير هذا الخبر، أنَّ الطائفة المنصورة التي يرفع الخذلان عنهم إلى قيام الساعة هم أصحاب الحديث.

حديث: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء».

قال عبدان: (هم أصحاب الحديث الأوائل).

وقال الخطيب البغدادي كما في الفقيه والمتفقه: (٢/ ٧١).

باب: إنَّ مثل العلماء في الأرض كمثل نجوم السماء، يهتدي بها في ظلمات البر والبحر.

(وقد جعل الله العلم وسائل أوليائه، وعصم به من أختاره من أصفيائه فحقيق على المتوسم به استفراغ المجهود في طلبه، وأهل العلم في حفظه متقاربون وفي استنباط فقهه متباينون ولهذا قال النبي ﷺ ثم ساق السند (نظَّر الله امرءاً سمع مِنَّا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه) ثم قال رحمه الله ـ فأخبر النبي ﷺ أنه قد عمِل الحديث من يكون له حافظاً ولا يكون فيه فقيهاً.

وقال رحمه الله في مقدمة كتابه شرف أصحاب الحديث: أَمَّا بعد: وفقكم الله لعمل الخيرات وعصمنا وإياكم من اقتحام البدع والشبهات، فقد وقفنا على ما ذكرتم من عيب المبتدعة أهل السنن والآثار وطعنهم على من شغل نفسه بسماع الأحاديث وحفظ الأخبار، وتكذيبهم بصحيح ما نقله إلى الأمة الأئمة الصادقون، واستهزائهم بأهل الحق فيما وضعه عليهم الملحدون «الله يستهزىء بهم ويمدُهم في طُغيانهم يعمهون» إلى أن قال: ولو أنَّ صاحب الرأي المذموم شغل نفسه بما ينفعه من العلوم وطلب سنن رسول رب العالمين واقتفى آثار الفقهاء والمحدثين لوجد في ذلك ما يغنيه عَمَّا سواه واكتفى بالأثر عن رأيه الذي رآه. لأَنَّ الحديث يشتمل على معرفة أُصول التوحيد وبيان ما جاء من

وجوه الوعد والوعيد... إلىٰ أن قال: وفيه تفسير القرآن العظيم وما فيه من النبأ والذكر الحكيم.

وأقاويل الصحابة في الأحكام المحفوظة عنهم وتسمية من ذهب إلى كل قول واحد منهم من الأئمة الخالفين والفقهاء المجتهدين.

وقد جعل الله تعالى أهله أركان الشريعة وهدم بهم كل بدعة شنيعة فهم أَبناء الله من خليقته والواسطة بين النبي ﷺ وأُمته والمجتهدون في حفظ مِلَّته، أنوارهم زاهرة وفضائلهم سائرة وآياتهم باهرة، ومذاهبهم ظاهرة وحججهم قاهرة، وكل فئة تتحيز إلى هوى ترجع إليه أو تستحسن رأياً تعكف عليه، سوى أصحاب الحديث فإن الكتاب عدتهم والسُّنة حجتهم والرسول فئتهم وإليه نسبتهم. لا يعرجون على الأهواء ولا يلتفتون إلى الآراء يُقبل منهم ما رووا عن الرسول وهم المأمونون عليه والعدول حفظة الدين وخزنته وأوعية العلم وحملته إذا اختلف في حديث كان إليهم الرجوع، فما تكلموا به فهو المقبول المسموع ومنهم كل عالم فقيه، وإمام رفيع نبيه، وزاهد في قبيلة ومخصوص بفضيلة وقارىء متقن، وخطيب محسن، وهم الجمهور

العظيم، وسبيلهم السبيل المستقيم وكل مبتدع باعتقادهم يتظاهر وعلى الإفصاح بغير مذاهبهم لا يتجاسر.

من كادهم قصمه الله، ومن عائذهم خذلهم الله، لا يضرهم من خذلهم ولا يفلح من اعتزلهم، والمحتاط لدينه إلى ارشادهم فقير، وبصر الناظر بالسوء إليهم حسير، وإنَّ الله علىٰ نصرهم لقدير.

ثم روى بإسناده إلى سفيان بن عيينة أنه قال: ما مِنْ أحد يطلب الحديث إلَّا وفي وجهه نضرة لقول النبي ﷺ: «نضَّر الله اِمرأً سمع مِنَّا حديثاً فبلغه» (ص ١٠ ـ ١١). وقال الخطيب البغدادي في (شرف أصحاب الحديث) (ص ٣٤، ٣٥): كون أصحاب الحديث أولى الناس بالرسول ﷺ لدوام صلاتهم عليه ﷺ. ثم ساق بإسناده إلى عبد الله بن مسعود مرفوعاً (إنَّ أولىٰ الناس بي يوم القيامة أكثرهم صلاة عَليّ).

ثم قال: قال لنا أبو نعيم: وهذه منقبة شريفة يختص بها رواة الآثار ونقلتها لأنه لا يعرف لعصابة من العلماء من الصلاة على رسول الله ﷺ أكثر مما يعرف لهذه العصابة نسخاً وذكراً.

قال الخطيب (ص ٤٢): كون أصحاب الحديث أُمناء

الرسول ﷺ لحفظهم السنن وتمييزهم لها. ثم ساق بإسناده إلى أَبي حاتم الرازي أنه قال:

لم يكن في أمة من الأُمم منذ خلق الله آدم أمناء يحفظون آثار الرسل إلا في هذه الأمة. فقال له رجل: يا أبا حاتم! ربما رووا حديثاً لا أصل له ولا يصح فقال: علماؤهم يعرفون الصحيح من السقيم. فروايتهم ذلك للمعرفة ليتبين لمن بعدهم أنهم ميزوا الآثار وحفظوها. وساق بإسناده إلى عبد الله بن داود الخريبي أنه قال: سمعت أئمتنا ومن فوقنا: أنَّ أصحاب الحديث وحملة العلم هم أُمناء الله على دينه وحفاظ سُنَّة نبيه ما علموا وعملوا.

قال الخطيب رحمه الله: كون أصحاب الحديث حماة الدين بذبهم عن السنن وساق بإسناده إلى سفيان الثوري أنه قال: الملائكة حراس السماء، وأصحاب الحديث حراس الأرض.

قال الخطيب: كون أصحاب الحديث ورثة الرسول ﷺ فيما خلفه من السنة وأنواع الحكمة. ثم أسند إلى الفضيل بن عياض أنه رأى قوماً من أصحاب الحديث ـ يعني بهم خفة ـ فقال: هكذا تكونون يا ورثة الأنبياء. وأسند إلى الشافعي أنه

قال: إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث فكأني رأيت النبي ﷺ حياً.

قال الخطيب: كونهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر: ثم ساق إسناده إلى إبراهيم بن موسى أنه سئل: من الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر؟ قال: نحن هم، نقول: قال رسول الله ﷺ: إفعلوا كذا، وقال رسول الله ﷺ: لا تفعلوا كذا.

قال: كونهم خيار الناس. وساق بإسناده إلى أبي بكر بن عياش أنه ضرب ساعد يحيى بن آدم فقال: ما قوم خير من أصحاب الحديث إنَّ أحدهم ليسألني عن الحديث كذا وكذا مرة ولو شاء لقال: حدثني أبو بكر بن عياش. ثم ساق بإسناده إلى الإمام أحمد بن حنبل أنه قال:

(ليس قوم عندي خير من أهل الحديث ليس يعرفون إلا الحديث).

وقال: أهل الحديث أفضل من تكلم في العلم.

قال الخطيب: من قال لولا أهل الحديث لا ندرس الإسلام.

ثم ساق أسانيده إلى حفص بن غياث وأبي داود،

وعلي بن المديني بهذا المعنى ولفظ أَبي داود أنه قال: لولا هذه العصابة لا ندرس الإسلام ـ يعني أصحاب الحديث الذين يكتبون الآثار.

قال الخطيب ص ٧١: الاستدلال على أهل السُّنة بحبهم أصحاب الحديث: وساق بإسناده إلى قتيبة بن سعيد أنه قال: إذا رأيت الرجل يحب أهل الحديث مثل يحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وذكر قوماً آخرين فإنه على السنة ومن خالف هذا فاعلم أنه مبتدع.

ثم ساق بإسناده إلى أبي جعفر الخواص أنه قال:

ذهبــــت دولـــــة أصحـــــاب البـــــدع
ووهـــــى حبلهـــــم ثـــــم انقطـــــع

وتـــداعـــــى بـــانصـــراف جمعهـــم
حـــزب إبليـــس الـــذي كـــان جمـــع

هـــل لهـــم يـــا قـــوم فـــي بـــدعتهـــم
مـــــن فقيـــــه أو إمـــــام يتبـــــع

مثـــل سفيـــان أخـــي ثـــور الـــذي
علـــم النـــاس دقيقـــات الـــورع

أو سليمـــان أخـــي التـيـــم الـــذي
تـــرك النـــوم لهـــول المطلـــع

أو فتـــى الإســـلام أعنـــي أحمـــدا
ذاك لـــو قـــارعـــه القـــراء قـــرع

لـــم يخـــف ســـوطهـــم إذ خـــوفـــوا
لا ولا سيفهـــــم حيـــــن لمـــع

قال الخطيب: من جمع بين مدح أصحاب الحديث وذم أهل الرأي والكلام الخبيث ثم ساق أسانيده إلى الشعبي وأحمد بن شبويه ومحمد بن عبد الرحمٰن النسفي ذمهم للرأي، وهذا لفظ أحمد بن شبويه: من أراد علم القبر فعليه بالأثر ومن أراد علم الخبز فعليه بالرأي.

ثم أَسند إلى عبدة بن زياد الأصبهاني من قوله:

ديـــن النبـــي محمـــد أخبـــار
نِعَـــم المطيـــة للفتـــى الآثـــار

لا تخـــدعـــن عـــن الحـــديـــث وأهلـــه
فـــالـــرأي ليـــل والحـــديـــث نهـــار

ولـــربمـــا غلـــط الفتـــى سبـــل الهـــدى
والشمـــس بـــازغـــة لهـــا أنـــوار

وأسند إلى محمد بن علي الصوري من قوله:

قل لمن عاند الحديث وأضحى
عائباً أهله ومن يدعيه

أبعلم تقول هذا أبن لي
أم بجهل فالجهل خلق السفيه

أيعاب الذي هم حفظوا الدين
من الترهات والتمويه

وإلى قولهم وما قد رووه
راجع كل عالم وفقيه

ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتاب الإمام الخطيب رحمه الله (شرف أصحاب الحديث).

وأخرج الحاكم في معرفة علوم الحديث (٢٦ ـ ٢٧) بإسناده إلى يزيد بن هارون قال: قلت لحماد بن يزيد: يا أبا إسماعيل هل ذكر أهل الحديث في القرآن؟ فقال: بلى. ألم تسمع إلى قوله تعالىٰ: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾.

فهذا فيمن رحل في طلب العلم ثم يرجع به إلى من

وراءه ليعلمهم إيَّاه[1]. وأخرج مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن المبارك أنه قال: (الإِسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء).

وقال الإمام ابن القيم في نونيته:

يـا مبغضـاً أهـل الحـديـث وشـاتمـاً
أبشـــر بعقـــد ولايـــة الشيطـــان

أو مـا علمـت بـأنهـم أنصـار الـرسـول
لهـــم بـــلا شـــك ولا نكـــران

مـــا ذنبهـــم إذ خـــالفـــوك لقـــولـــه
مـــا خـــالفـــوه لأجـــل قـــول فـــلان

نسبـــوا إليـــه كـــل مقـــالـــة
أو حـــالـــه أو قـــائـــل ومكـــان

وقال الإمام ابن الجوزي بعد أن ذكر تلبس إبليس على الزهاد في تـرك العلم، مِمَّا أدى إلى قدحهم بأهل الحديث مثل قول بشر الحافي لعباس بن عبد العظيم: (لا تجالس أصحاب الحديث).

---

(١) وأخرج الخطيب في الرحلة (٨٦ - ٨٧) وفي شرف أصحاب الحديث.

فإذا لم يتشاغل بالعلم فكيف يبلِّغ الشريعة إلى الخلق.

ولقد نقل هذا عن كبار الزهاد كبشر الحافي فإنه قال لعباس بن عبد العظيم: لا تجالس أصحاب الحديث وقال لاسحاق ابن الضيف: إنك صاحب حديث فأحب أن لا تعود إليّ.

ثم اعتذر فقال: إنَّما الحديث فتنة إلا لمن أراد الله به.

وإذا لم يعمل به فتركه أفضل وهذا عجب منه.

مِنْ أين له أنَّ طلابه لا يريدون الله به وأنهم لا يعملون به؟

أو ليس العمل به على ضربين: عمل بما يجب وذلك لا يسع أحد تركه.

والثاني: نافلة ولا يلزم.

والتشاغل بالحديث أفضل من التنفل بالصوم والصلاة.

وما أظنه أراد إلا طريقه في دوام الجوع والتهجد وذلك شيء لا يلام تاركه. فإن كان يريد أن لا يوغل في علوم الحديث فهذا خطأ لأن جميع أقسامه محمودة. افترى لو ترك الناس طلب الحديث كان بشر يفتي.

فالله الله في الالتفات إلى قول من ليس بفقيه ولا يهولنك تعظيم إسمه فالله يعفو عنه. (ص ٣٣٩).

* وقال الرامهرمزي رحمه الله في كتابه (المحدث الفاصل بين الراوي والواعي) (ص ١٦٩ ـ ١٧١) عند كلامه على حديث (نضر الله امرءاً). فقال: (ففرق النبي ﷺ بين ناقل السنة وواعيها، ودل على فضل الواعي بقوله: (رُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورُبَّ حامل فقه غير فقيه) بوجوب الفضل لأحدهما يثبت الفضل للآخر مثال ذلك أن نمثل بين مالك بن أنس وعبيد الله العمري وبين الشافعي وعبد الرحمٰن بن مهدي، وبين أبي ثور وابن أبي شيبة فإنْ الحق يقودك إلى أن تقضي لكل واحد منهم بالفضل وهذا طريق الإنصاف لمن سلكه وعلم الحق لمن أمه ولم يتعده).

قال الشيخ العبَّاد في كتابه (دراسة لحديث نضر الله إِمرءاً). عند ذكره لفوائد الحديث: الفائدة (الثانية والأربعون) أنه لا يشترط للرواية الفقه في المروي لأن النبي ﷺ دعا لمن بَلَّغ سُنَّته إلى غيره وقال: (ورب حامل فقه لأفقه منه). وقال ابن قتيبة رحمه الله في كتابه (تأويل مختلف الحديث) بعد أن ذكر قدح المبتدعة في أهل الحديث قال: (فأمَّا أصحاب الحديث فإنهم إلتمسوا الحق من وجهته

وتتبعوه من مظانه وتقربوا من الله تعالى باتباعهم سنن رسول الله ﷺ وطلبهم لآثاره وأخباره براً وبحراً وشرقاً وغرباً. يرحل الواحد منهم راجلاً مقوياً في طلب الخبر الواحد أو السُّنة الواحدة حتى يأخذها من الناقل لها مشافهة ثم لا يزالوا في التنقير عن الأخبار والبحث لها حتى فهموا صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها وعرفوا من خالفها من الفقهاء إلى الرأي فنبهوا على ذلك حتى نجم الحق بعد أن كان عافياً، وسيق بعد أن كان دارساً، واجتمع بعد أن كان متفرقاً، وانقاد للسنن من كان عنها معرضاً، وتنبه لها من كان عنها غافلاً، وحكم بقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن كان يحكم بقول فلان وفلان، وإن كان فيه خلاف على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد يعيبهم الطاعنون بحملهم الضعيف وطلبهم الغرائب وفي الغريب الداء ولم يحملوا الضعيف والغريب لأنهم رأوهما حقاً بل جمعوا الغث والسمين والصحيح والسقيم يميزوا بينهما ويدلوا عليهما وقد فعلوا ذلك. . . .

وقال الإمام الرامهرمزي كما في مقدمة كتابه (المحدث الفاصل):

اعترضت طائفة ممن يشنأ الحديث ويبغض أهله، فقالوا

بتنقص أصحاب الحديث والإزراء بهم واسرفوا في ذمهم والتقول عليهم. وقد شرف الله الحديث وفضل أهله وأعلى منزلته وحكمه على كل نحلة، وقدمه على كل علم، ورفع من ذكر من حمله وعني به، فهم بيضة الدين ومنار الحجة. وكيف لا يستوجبون الفضيلة ولا يستحقون الرتبة الرفيعة، وهم الذين حفظوا على الأمة هذا الدين وأخبروا عن أنباء التنزيل وأثبتوا ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وما عظمه الله عز وجل به من شأن الرسول ﷺ فنقلوا شرائعه ودونوا مشاهده، وصنفوا أعلامه ودلائله، وحققوا مناقب عثرته ومآثر آبائه وعشيرته، وجاؤوا بسير الأنبياء ومقامات الأولياء وأخبار الشهداء والصديقين، وعبروا عن جميع فعال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفره وحضره، وظعنه وإقامته وسائر أحواله، من منام ويقظة، وإشارة وتصريح، وصمت ونطق، ونهوض وقعود، ومأكل ومشرب، وملبس ومركب، وما كان سبيله في حال الرضا والسخط، والإنكار والقبول، حتى القلامة من ظفره ما كان يضع بها، والنخاعة من فيه أين كانت وجهتها، وما كان يقوله عند كل فعل يحدثه ويفعله عند كل موقف ومشهد يشهده تعظيما له صلى الله عليه وآله وسلم، ومعرفة بإقدار ما ذكر عنه وأسند إليه فمن عرف للإسلام حقه وأوجب للرسول حرمته، أكبر

أن يحتقر من عظم الله شأنه وأعلى مكانه وأظهر حجته وأبان فضيلته. ولم يرتق بطعنه إلى حزب الرسول واتباع الوحي وأوعية الدين ونقلة الأحكام والقرآن، الذين ذكرهم الله عز وجل في التنزيل فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٍ﴾ فإنك إن أردت التوصل إلى معرفة هذا القرن، لم يذكرهم لك إلاَّ راو الحديث متحقق به أو داخل في حيز أهله ومن سوىٰ ذلك فربك بهم أعلم.

وقال: (وكفى بالمحدث شرفاً أن يكون اسمه مقروناً باسم النبي ﷺ وذكره متصلاً بذكره وذكر أهل بيته وأصحابه).

قال الإمام ابن حبان رحمه الله في مقدمة صحيحه كما في (الإحسان بتقريب صحيح ابن حبان) حَمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: (ثم اختار طائفة لصفوته، وهداهم للزوم طاعته) من اتباع سبل الأبرار في لزوم السنن والآثار، فزيَّن قلوبهم بالإيمان، وأنطق ألسنتهم بالبيان، من كشف أعلام دينه واتباع سنن نبيه بالدؤوب في الرحل والأسفار، وفراق الأهل والأوطان، في جمع السنن، ورفض الأهواء، والتفقه فيها بترك الآراء، فتجرد القوم للحديث وطلبوه، ورحلوا فيه وكتبوه، وسألوا عنه وذاكروا به، ونشروه، وتفقهوا فيه

وأصلوه، وفرعوا عليه وبذلوه، وبينوا المرسل من المتصل، والموقوف من المنفصل والناسخ من المنسوخ، والمحكم من المفسوخ، والمفسر من المجمل، والمستعمل من المهمل والمختصر من المتقصى، والملزوق من المتفصى، والعموم من الخصوص، والدليل من المنصوص، والمباح من المزجور، والغريب من المشهور، والفرض من الإرشاد، والحتم من الإيعاد، والعدول من المجروحين، والضعفاء من المتروكين، وكيفه المعلوم من المجهول، وما حرف عن المخزول، وقلب عن المنحول من مخايل التدليس وما فيه من التلبيس، حتى حفظ الله بهم الدين على المسلمين، وصانه من ثلب القادحين، جعلهم عند التنازع أئمة الهدى، وفي النوازل مصابيح الدجى، فهم ورثة الأنبياء ومأنس الأصفياء.

إلى أن قال: وإنْ في لزوم سنته تمام السلامة وجماع الكرامة لا تطفأ سرجها ولا تدحض حُججها، من لزمها عصم ومن خالفها ندم، إذ هي الحصن الحصين من تمسك به ساد، ومن رام خلافه باد، فالمتعلقون به أهل السعادة في الآجل والمغبوطون بين الأنام في العاجل) انتهى المراد.

وقال الإمام الحاكم في مقدمة كتابه (معرفة علوم الحديث):

(الحمد لله ذي المن والإحسان والقدرة والسلطان الذي أنشأ الخلق بربوبيته وجنسهم بمشيئته واصطفى منهم طائفة أصفياء وجعلهم بررة أتقياء فهم خواص عباده وأوتاد بلاده، يصرف عنهم البلايا، ويخصهم بالخيرات والعطايا فهم القائمون بإظهار دينه، والمتمسكون بسنن نبيه، وأشهد أن لا إله إلا الله الذي زجر عن اتخاذ الأولياء دون كتابه واتباع الخلق دون نبيه ـ صَلَّى الله عليْه وسلمَ ـ وأنّ محمداً عبده المصطفى، ورسوله المجتبى، بلغ عنه رسالته فصلى الله عليه آمراً وناهياً ومبيحاً وزاجراً وعلى آله الطيبين.

أمّا بعد:

فإني لما رأيت البدع في زماننا كثرت ومعرفة الناس بأصول السنن قلت مع إمعانهم في كتابة الأخبار، وكثرة طلبها على الإهمال والإغفال، دعاني ذلك إلى تصنيف كتاب خفيف، يشمل على ذكر أنواع علم الحديث. مما يحتاج إليه طلبة الأخبار المواظبون على كتابة الآثار.

ثم ساق بإسناده إلى النبي ﷺ أنه قال: (لا يزال ناس

من أُمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة).

وأسند إلى الإمام أحمَد بن حنبل أنه قال: إنْ لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث فلا أدري من هم؟

قال الحاكم رحمه الله بعد ذلك: وفي مثل هذا قيل: من أمر السُّنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحق، فلقد أحسن أحمد بن حنبل في تفسير هذا الخبر، أنَّ الطائفة المنصورة التي يرفع الخذلان عنهم إلى قيام الساعة هم أصحاب الحديث، ومن أحق بهذا التأويل من قوم سلكوا محجة الصالحين واتبعوا آثار السلف الماضين، ودفعوا أهل البدع والمخالفين بسنن رسول الله صلى الله عليه وآله أجمعين، من قوم آثروا قطع المفاوز والقفار على التنعم في الدمن والأوطان، وتنعموا بالبؤس في الأسفار، مع مساكنة العلم والأخبار، وقنعوا عند جمع الأحايث والآثار، بوجود الكسر والأطمار، قد تركوا الإلحاد الذي تتوق إليه النفوس الشهوانية وتوابع ذلك من البدع والأهواء، والمقاييس والآراء والزيغ، جعلوا المساجد بيوتهم وأساطينها دكاهم وبواريها فرشهم.

ثم ساق بإسناده إلى حفص بن غياث أنه قيل له:

(ألا تنظر إلى أصحاب الحديث وما هم فيه: قال: هم خير أهل الدنيا).

ثم ساق بإسناده إلى أبي بكر بن عياش أنه قال: (إني لأرجو أن يكون أصحاب الحديث خير الناس، يقيم أحدهم ببابي وقد كتب عني فلو شاء أن يرجع ويقول: حدثني أبو بكر جميع حديثه فعل ولكنهم لا يكذبون). قال الحاكم رحمه الله: ولقد صدقا جميعاً أن أصحاب الحديث خير الناس وكيف لا يكونون كذلك، وقد نبذوا الدنيا بأسرها وراءهم، وجعلوا غذاءهم الكتابة وسمرهم المعارضة واسترواحهم المذاكرة، وخلوتهم المداد، ونومهم السهاد، واصطلاؤهم الضياء، وتوسدهم الحصى، فالشدائد مع وجود الأسانيد العالية عندهم رخاء ووجود الرخاء مع فقد ما طلبوه عندهم بؤس، فعقولهم بلذاذة السنة غامرة، قلوبهم بالرضاء في الأحوال عامرة، تعلم السنن سرورهم، ومجالس العلم حبورهم، وأهل السنة قاطبة إخوانهم، وأهل الإلحاد والبدع بأسرها أعداؤهم ثم ساق بإسناده إلى أبي إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذي أنه قال: كنت أنا وأحمد بن الحسن الترمذي عند أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل فقال له أحمد بن الحسن: يا أبا عبد الله ذكروا لابن أبي قتيلة بمكة:

أصحاب الحديث، فقال: أصحاب الحديث قوم سوء. فقام أبو عبد الله وهو ينفض ثوبه فقال: زنديق، زنديق زنديق ودَخل البيت.

ثم ساق بإسناده إلى أحمد بن سنان القطان أنه قال: (ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث وإذا ابتدع الرجل نزع حلاوة الحديث من قلبه). قال الحاكم: وعلى هذا عهدنا في إسفارنا وأوطاننا، كل من ينسب إلى نوع من الإلحاد والبدع، لا ينظر إلى الطائفة المنصورة إلاَّ بعين الحضارة ويسميها الحشويه. ا. هـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوي (جـ ٣ ص ٣٤٧): (وبهذا يتبين أن أحق الناس بأن تكون الفرقة الناجية أهل الحديث والسنة الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بأحواله وأقواله وأعظمهم تميزاً بين صحيحها وسقيمها وأئمتهم فقهاء فيها وأهل معرفة بمعانيها واتباعاً لها تصديقاً وعملاً وحباً وموالاة لمن والاها ومعاداة لمن عاداها. الذين يروون المقالات المجملة إلى ما جاء به من الكتاب والحكمة فلا ينصبون مقالة ويجعلونها من أصول دينهم وجمل كلامهم إن لم تكن ثابتة فيما جاء به الرسول ﷺ بل يجعلون ما بعث به الرسول

صلى الله عليه وآله وسلم من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه. وما تنازع الناس فيه من مسائل الصفات والقدر والوعيد والأسماء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك، يردونه إلى الله ورسوله ويفسرون الألفاظ المجملة التي تنازع فيها أهل التفرق والاختلاف، فما كان من معانيها موافقاً للكتاب والسنة أثبتوه وما كان منها مخالفاً للكتاب والسنة أبطلوه ولا يتبعون الظن وما تهوى الأنفس فإن اتباع الظن جهل وإبداع هوى النفس بغير هدى من الله ظلم) ا. هـ.

وقال أيضاً (ج ٤/ ٩ ـ ١٠):

(من المعلوم أن أهل الحديث يشاركون كل طائفة فيما يتحلون به من صفات الكمال، ويمتازون عنهم بما ليس عندهم، فإن المنازع لهم لا بد أن يذكر فيما يخالفهم فيه طريقاً أخرى مثل المعقول والقياس، والرأي، والكلام، والفظ، والاستدلال، والمحاجة، والمجادلة، والمكاشفة، والمخاطبة، والوجد، والذوق، ونحو ذلك، وكل هذه الطرق لأهل الحديث صفوتها وخلاصتها فهم أكمل الناس عقلاً، وأعدلهم قياساً، وأصوبهم رأياً وأسَّدهم كلاماً وأصحهم نظراً وأهداهم استدلالاً وأقومهم جدلاً، وأتمهم

فراسة، وأصدقهم إلهاماً، وأحدهم بصراً ومكاشفة، وأصوبهم سمعاً ومخاطبة، وأعظمهم وأحسنهم وجداً وذوقاً، وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم، ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل). ا.هـ.

وقال رحمه الله أيضاً (٤/ ٩٥):

(وأدنى خصلة في هؤلاء ـ يريد أهل الحديث ـ محبة القرآن والحديث والبحث عنهما وعن معانيهما والعمل بما عملوه من موجبهما. ففقهاء الحديث أخبر بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم من فقهاء غيرهم، وصوفيتهم اتبع للرسول صلى الله عليه وآله وسلم من صوفية غيرهم، ومراؤهم أحق بالسياسة النبوية من غيرهم، وعامتهم أحق بموالاة الرسول ﷺ من غيرهم) ا.هـ.

وقال أيضاً (ج ٣٠ ص ٢٦٩): ولهذا كان فقهاء الحديث يؤصلون أصلاً بالنص ويفرعون عليه لا ينازعون في الأصل المنصوص ويوافقون فيما لا نص فيه ويتولد من ذلك ظهور الحكم المجمع عليه لهيبة الاتفاق في القلوب وأنه ليس لأحد خلافه).

وقال في أثناء ثنائه على الإمام أحمد (ج ٣٤ ص ١١٣): (ومذهبه ـ أي أحمد ـ أن أصول فقهاء الحديث

أصح من أصول غيرهم والشافعي وإسحاق هما عنده من أجل فقهاء الحديث في عصرهما) ا. هـ.

وقال اللكنوي في كتابه (إمام الكلام فيما يتعلق بالقراءة خلف الإمام) ص ١٥٦ : (ومن نظر بنظر الإنصاف وغاص في بحار الفقه والأصول متجنباً الإعساف، يعلم علماً يقينياً أن أكثر المسائل الفرعية والأصلية التي اختلف العلماء فيها، فمذهب المحدثين فيها أقوى من مذهب غيرهم وإني كلما أسير في شعب الاختلاف، أجد قول المحدثين فيها قريباً من الإنصاف، فلله درهم وعليه شكرهم كيف لا، وهم ورثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حقاً، ونواب شرعه صدقاً حشرنا الله في زمرتهم وأماتنا على حبهم وسيرتهم). ا. هـ.

فصل فيمن قدح في أهل الحديث

لقد لبس الشيطان على بعض الزهاد حتى تركوا طلب العلم بل قدحوا في أهل الحديث.

فقال بشير الحافي لعباس بن عبد العظيم «لا تجالس أصحاب الحديث».. وقال لإسحاق بن الضيف.. إنك صاحب حديث فأحب أن لا تعد إلي»[(١)].

قال ابن الجوزي كما في صيد الخاطر ص ٥٥٧:

(وعلم الحديث يتعلق بعضه ببعض وهو مشتهي، والفقهاء يسمونه علم الكسالى لأنهم يتشاغلون بكتابته وسماعه ولا يكادون يعانون حفظه ويفوتهم المهم وهو الفقه).

وقال الخطيب رحمه الله في الفقيه والمتفقه (٢/ ٧١-٧٣).

---

(١) صيد الخاطر ص ٣٣٩.

بعد أن ذكر أهل زمانه وأنهم اهتموا بكتب الحديث ولم يفقهوا معانيه ولم يفرقوا بين الصحيح والسقيم. . إلخ.

(فجعلوا لأهل البدع من المتكلمين ومن غلب عليه الرأي من المتفقهين طريقاً إلى الطعن على أهل الآثار ومن شغل فيه بسماع الأحاديث والأخبار حتى وصفوهم بضروب الجهالات ونبزوهم بأسوأ المقالات وأطلقوا ألسنتهم بسبهم وتضاهروا بعيب المتقدمين وثلبهم. . . إلخ.

وقال رحمه الله: (وأما طعن المتخصصين من أهل الرأي والمتكلمين فأنا أبين السبب فيه ليعرفه من لم يكن يدريه: أما أهل الرأي فجل ما يحتجون به من الأخبار واهية الأصل ضعيفة عند العلماء بالنقل. فإذا سئل عنها بينوا حالها، واضهروا فسادها، فيشق عليهم إنكارهم إياها وما قالوه في معناها وهم قد جعلوها عمدتهم، واتخذوها عدتهم، وكان فيها أكثر النصرة لمذاهبهم وأعظم العون على مقاصدهم ومآربهم، فغير مستنكر طعنهم عليهم واضافتهم أسباب النقص إليهم، وترك قبول نصيحتهم في تعليلهم، ورفض ما عنوه من جرحهم وتعديلهم، لأنهم قد هدموا ما شيدُوه وأبطلوا ما راموه منه وقصدوه وعللوا ما ظنوا صحته واعتقدوه.

وأما المتكلمون: فهم معذورون فيما يضهرونه من الإزدراء بهم، والعيب لهم لما بينهم من التباين الباعث على التضاد والتشاحن، واعتقادهم في جل ما ينقلونه وعظم ما يروونه ويتداولونه إبطاله، واكفار الذين يصححونه واعضامهم الفرية وتسميتهم لهم الحشوية واعتقاد المحدثين في المتكلمين غير خاف على العلماء والمتعلمين بها كما قال الأول:

الله يعلـــــم أنـــــا لا نحبكمـــــوا
ولا نلـــومكمـــوا إذ لا تحبـــونـــا

وقال الإمام الرامهرمزي في مقدمة كتابه (المحدث الفاصل): (اعترضت طائفة ممن يشنأ الحديث ويبغض أهله فقالوا بتنقص أصحاب الحديث والإزراء بهم وأسرفوا في ذمهم والتقول عليهم. . . .).

فصل في ذم المبغضين لأهل الحديث

قال الخطيب البغدادي كما في كتابه (شرف أصحاب الحديث) ص ٧٣.

الاستدلال على المبتدعة ببغض الحديث وأهله:

ثم ساق بإسناده إلى الإمام الأوزاعي أنه قال لبقيه: يا أبا محمد ما تقول في قوم يبغضون حديث نبيهم؟ قلت: «قوم سوء».

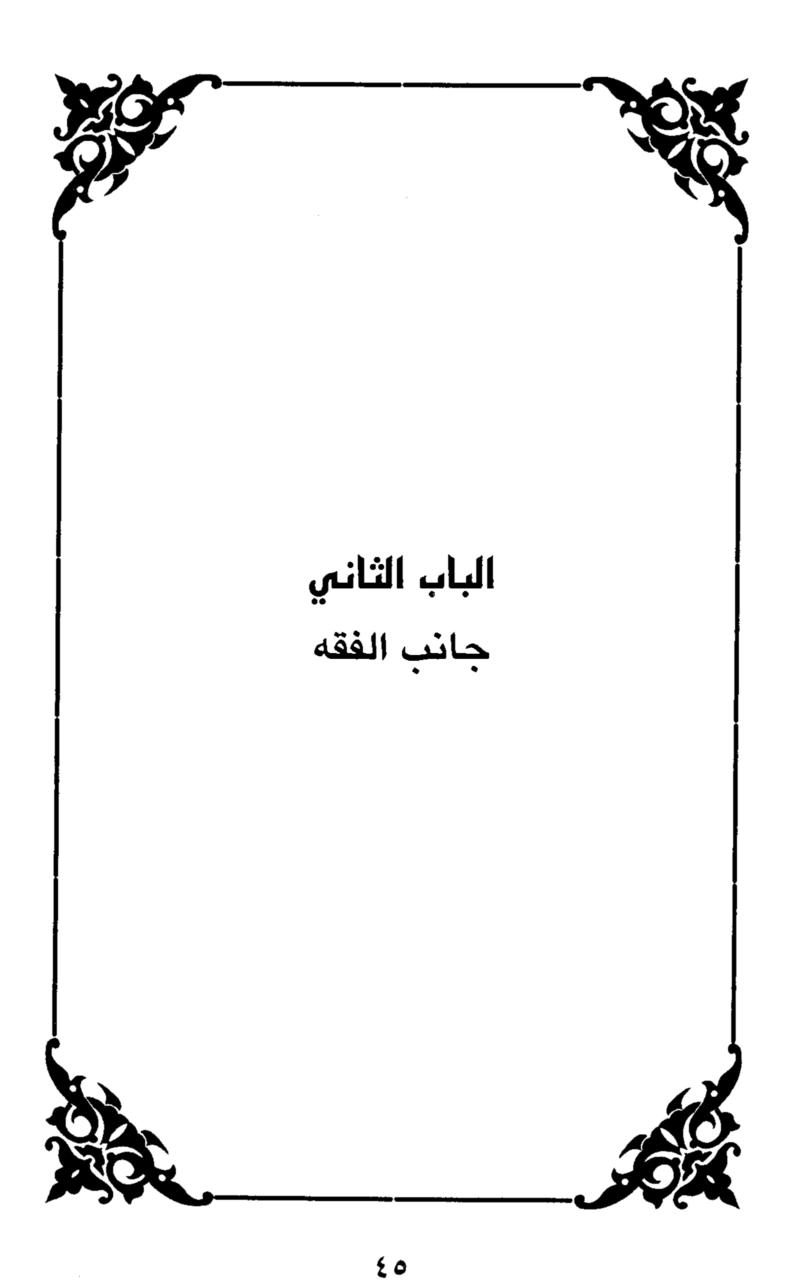
قال: ليس من صاحب بدعة تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلاف بدعته إلاَّ أبغض الحديث.

وقال أحمد بن سنان القطان: (ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث فإذا ابتدع الرجل نزع حلاوة الحديث من قلبه).

وقال أبو نصر بن سلام الفقيه: ليس شيء أثقل على أهل الإلحاد ولا أبغض إليهم من سماع الحديث وروايته بإسناده.

وقال أحمد بن الحسن للإمام أحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله، ذكروا لابن قتَيْلَةَ بمكة أصحاب الحديث فقال: أصحاب الحديث قوم سوء.

فقام أبو عبد الله وهو ينفض ثوبه فقال: زنديق.. زنديق.. زنديق.. زنديق ودخل بيته.



الباب الثاني

جانب الفقه

من هو الفقيه؟!

قال صاحب القاموس:

(الفقه) بالكسر العلم بالشيء والفهم له، والفطنة، وغلب على علم الدين لشرفه وذكر صاحب لسان العرب (ج ١٣ ص (٥٢٢)) نحو هذا.

وقال ابن الأثير في جامع الأصول (٩/ ١١٦):

(الفقه العلم والدراية في الأصل وقد جعله العرف خاصاً بعلم الشريعة وخاصة علم الفروع فإذا قيل فقيه علم، أنه العالم بعلوم الشرع وإن كان كل عالم بعلم فقيهاً) ا. هـ.

وقال الإمام ابن بطة في كتابه (إبطال الحيل) ص ٦.

(فأما الفقه[١] في اللسان الفصيح فمعناه الفهم. تقول: (فلان لا يفقه قولي) أي لا يفهم. قال الله عز وجل ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أي لا تفهمون.

---

(١) في الأصل: (الفقيه) فلعله خطأ مطبعي والله أعلم.

وقوله عز وجل ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ أي ليتفهموه فيكونوا علماء به. ومن ذلك قولهم: فلان لا يفقه ولا ينقه، معناه لا يفهم ولا يعلم) ا.هـ.

وقال أبو نصر حسين بن عبد الواحد الشيرازي (... الفقيه الذي عرف المتن ولا يعرف الإسناد)[1].

هذا وقد ذكر ابن بطة في كتابه المذكور صفات الفقيه فقال: ص ١٢.

ولهذا الفقيه الذي أراد الله به خيراً صفات وعلامات وصفها العلماء وأبانت عن حقائق العقلاء.

ثم أسند إلى مجاهد أنه قال: (إنما الفقيه من يخاف الله عز وجل) وفي إسناده ليث بن أبي سليم وهو ضعيف.

وأسند أيضاً إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال (ألا أخبركم بالفقيه كل الفقيه؟.. من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤمنهم من مكر الله ولم يرخص لهم في معاصي الله ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره) وفي إسناده أيضاً ليث بن أبي سليم.

---

(١) انظر تدريب الراوي.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه (إن الفقه ليس بكثرة السرد وسعة الهذر وكثرة الرواية، وإنما الفقه خشية الله).

وسئل سعد بن إبراهيم: من أفقه أهل المدينة؟ فقال: أتقاهم.

وعن مطر الوراق قال: سألت الحسن عن مسألة فقال فيها، فقلت يا أبا سعيد يأبىٰ عليك الفقهاء. فقال الحسن: ثكلتك أمك يا مطر، وهل رأيت بعينك فقيهاً قط؟! وقال: (تدري ما الفقيه؟ الفقيه الورع الزاهد المقيم على سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي لا يسخر بمن أسفل منه ولا يهزأ بمن فوقه ولا يأخذ على علم علمه الله إياهُ حطاماً) وهذا إسناده حسن.

قلت: هذه بعض صفات الفقيه التي ذكرها ابن بطة رحمه الله تعالى. فإذا أردت تطبيقها على فقهاء عصرنا فستجد المتصفين بها أعز من عنقاء مغرب وأندر من الكبريت الأحمر. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

فضل الفقهاء

إن للفقهاء فضائل كثيرة مبثوثة في بطون الكتب منها:

قول الله عز وجل: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: (أولوا الفقه والخير)[1].

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) وقال الإمام الشافعي رحمه الله كما في (الفقيه والمتفقه) للخطيب البغدادي (١/ ٣٦): (إن لم يكن الفقهاء أولياء الله في الآخرة فما لله ولي).

وقال الإمام ابن القيم كما في بدائع الفوائد (ص ٢٥٤):

---

(١) أخرجه الآجري في أخلاق العلماء بإسناد حسن.

(وأشرف العلوم وأنفعها علم الحدود ولا سيما حدود المشروع المأمور والمنهي. فأعلم الناس اعلمهم بتلك الحدود حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج منها ما هو داخل فيها. قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ فأعدل الناس: من قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات معرفة وفضلاً) ا.هـ.

وقال الإمام ابن الجوزي كما في صيد الخاطر: (الفقه عليه مدار العلوم.... فإن اتسع الزمان للتزيد من العلم فليكن من الفقه فإنه الأنفع وقيد المهم من كل علم فهو سيد العلوم) ا.هـ.

هذا وقد عقد الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى فصلاً في كتابه (الفقيه والمتفقه) أورد فيه ما يدل على جلالة الفقه والفقهاء فراجعه. والله أعلم.

فصل في مدح الفقهاء

(١) ذكر الخطيب في (نصيحة أهل الحديث) بإسناده إلى عبيد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى الأعمش فسأله عن مسألة وأبو حنيفة جالس. فقال الأعمش: يا نعمان قل فيها؟ فأجابه. فقال الأعمش: من أين قلت هذا؟ فقال: من حديثك الذي حدثتناه قال: نعم نحن صيادلة وأنتم أطباء.

ثم ذكر إسناداً آخر إلى عبيد الله بن عمرو أيضاً قال: (كنا عند الأعمش وهو يسأل أبا حنيفة عن مسائل، ويجيبه أبو حنيفة. فيقول له الأعمش: من أين لك هذا؟ فيقول أنت حدثتنا عن إبراهيم بكذا، حدثتنا عن الشعبي بكذا، قال فكان الأعمش بعد ذلك يقول: يا معشر الفقهاء أنتم الأطباء ونحن الصيادلة.

٢ ــ وذكر القاضي عياض رحمه الله تعالى في (ترتيب المدارك) (٣/ ٢٣١، ٢٣٦) في ترجمة عبد الله بن وهب تلميذ الإمام مالك، أن يوسف بن عدي قال: (أدركت الناس فقيهاً غير محدث، ومحدثاً غير فقيه. خلا عبد الله بن وهب

فإني رأيته فقيهاً محدثاً زاهداً قال ابن وهب: لولا أن الله انقذني بمالك واللَّيْثِ لضللت! فقيل له: كيف ذلك؟ قال: أكثرت من الحديث فحيرني فكنت أعرض ذلكَ على مالك والليث. فيقولان لي: خذ هذا ودع هذا) ا.هـ.

يعني رحمه الله أنه كانت تحيره الأحاديث المتعارضة فكان الليث ومالك يوفقان له بينهما.



الباب الثالث

الأصل أن أهل الحديث هم أهل الفقه

الأصل أن أهل الحديث هم أهل الفقه

قال ابن الجوزي كما في صيد الخاطر (٥٥٨): (وقد كان المحدثون قديماً هم الفقهاء ثم صار الفقهاء لا يعرفون الحديث والمحدثون لا يعرفون الفقه).

وقال في تلبيس إبليس ص ١١٨ : (ذكر تلبيس إبليس على الفقهاء):

«كان الفقهاء في قديم الزمان هم أهل القرآن والحديث فما زال الأمر يتناقص حتى قال المتأخرون يكفينا أن نعرف آيات الأحكام من القرآن وأن نعتمد على الكتب المشهورة في الحديث كسنن أبي داوود ونحوها، ثم استهانوا بهذا الأمر أيضاً وصار أحدهم يحتج بآية لا يعرف معناها وبحديث لا يدري أصحيح هو أم لا. وربما اعتمد على قياس يعارضه حديث صحيح ولا يعلم لقلة التفاته إلى معرفة النقل. وإنما الفقه إستخراج من الكتاب والسنة فكيف

يستخرج من شيء لا يعرفه. ومن القبيح تعليق حكم على حديث لا يدري أصحيح هو أم لا. ولقد كانت معرفة هذا تصعب، ويحتاج الإنسان إلى السفر الطويل والتعب الكثير حتى تعرف ذلك فعسفت الكتب وتقررت السنن وعرف الصحيح من السقيم. ولكن غلب على المتأخرين الكسل بالمره عن أن يطالعوا علم الحديث حتى إني رأيت بعض الأكابر من الفقهاء يقول في تصنيفه عن الفاض في الصحاح «لا يجوز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال هذا ورأيته يحتج في مسألة فيقول دليلنا ما روى بعضهم أن رسول الله قال كذا ويجعل الجواب عن حديث صحيح قد احتج به خصم أن يقول هذا الحديث لا يعرف. وهذا كله جناية على الإسلام.

وقال أبو ثور لأبي زرعة الرازي: (لم يزل هذا الأمر في أصحابك حتى شغلهم عنه إحصاء عدد رواة من كذب علي متعمداً. فغلبهم هؤلاء القوم عليه يعني أصحاب الرأي). . شرف أصحاب الحديث.

ذكر الخطيب في نصيحة أهل الحديث ص ٤٠ بإسناده إلى وكيع بن الجراح قال: (لقيني أبو حنيفة فقال لي: لو تركت كتابة الحديث وتفقهت أليس كان خيراً؟ قلت: أفليس

الحديث يجمع الفقه كله؟ قال: ما تقول في امرأة ادعت الحمل وأنكر الزوج؟ فقلت له: حدثني عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما. أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لاعن بالحمل فتركني فكان بعد ذلك إذا رآني في طريق أخذ من طريق آخر.

قال الشيخ عبد المحسن العباد في شرح قوله ﷺ: «فرُبَّ حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[١].

قال: ومعنى هاتين الجملتين الواردتين في بعض طرق الحديث، أنه قد يحفظ من لا يفهم وقد يفهم وغيره أفهم منه. والذي حفظ ولم يفهم مأجور لِحفظه السنة وتبليغها. والذي حفظ وفقه أكمل منه فيكون مأجوراً لحفظه وتبليغه واستنباطه من الحديث ما أمكن استنباطه فهو يبلغه لغيره. وقد يكون الذي بلغه إليه أفقه منه فيستنبط منه ما لم يفهم الحامل)[٢].

---

(١) والحديث متواتر وللشيخ عبد المحسن العباد مؤلف خاص بدراسة هذا الحديث رواية ودراية.

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٩٠.

. . . .

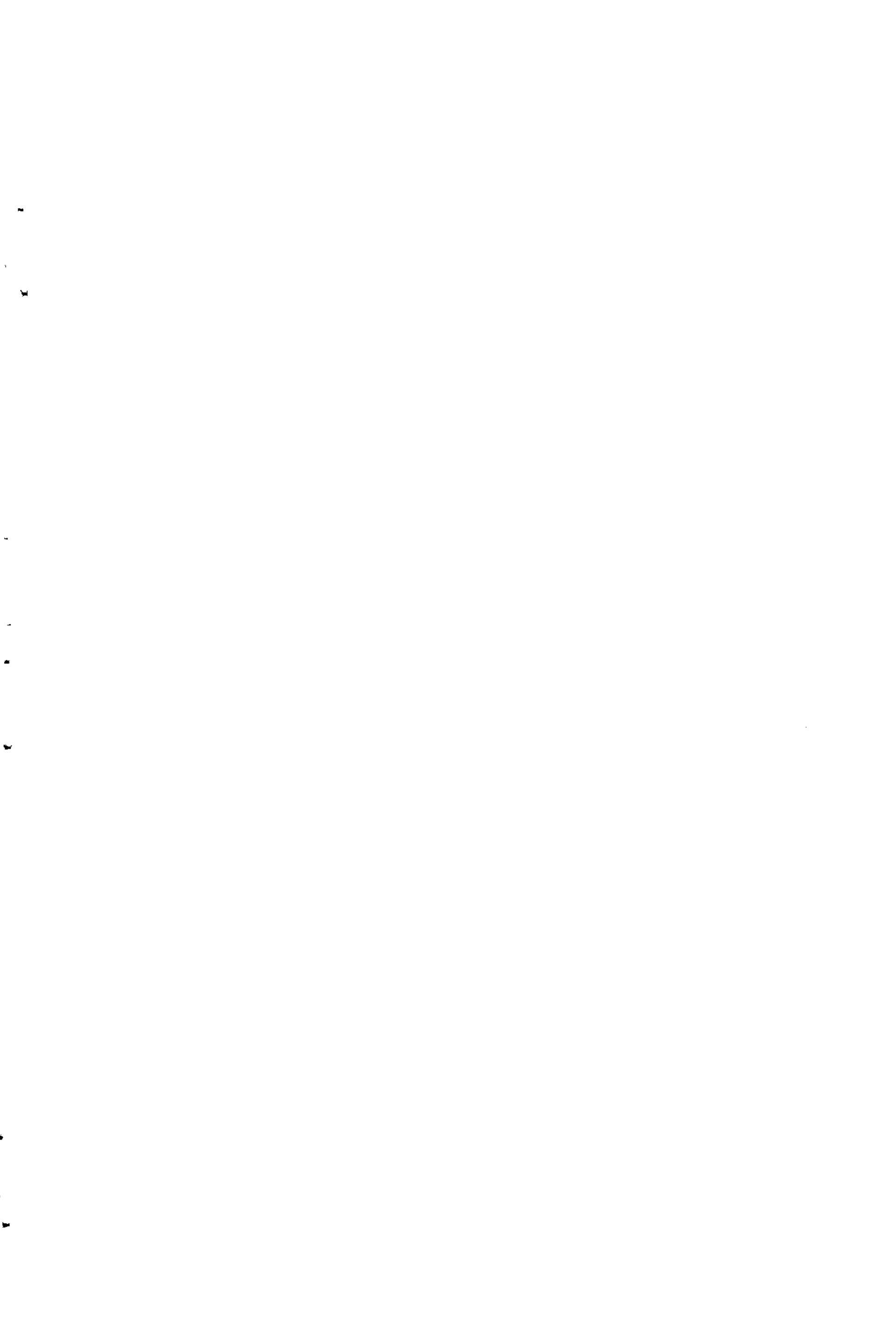
= تنبيه:

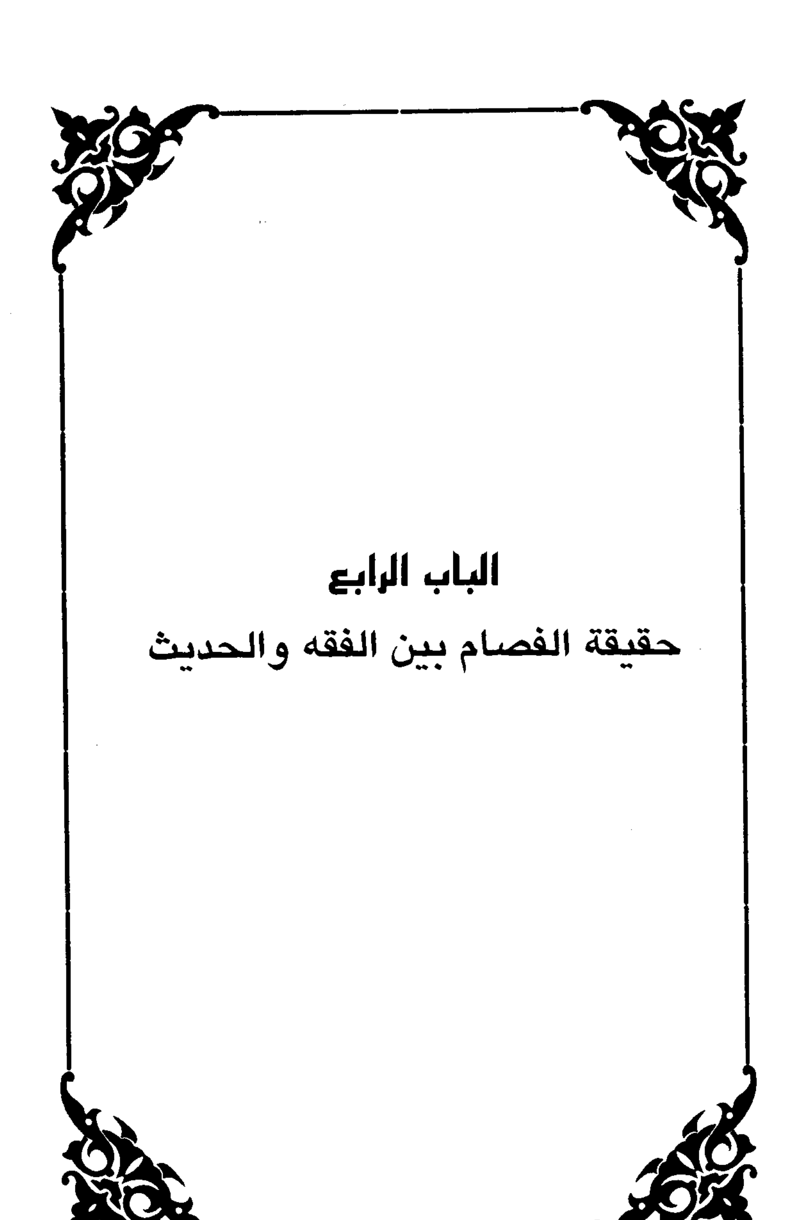
وممن جمع الله له بين الحديث والفقه الإمام ابن خزيمة رحمه الله وإليك شهادة العلماء له بذلك:

١ ــ قال أبو علي الحافظ: كان ابن خزيمة يحفظ الفقهيات من حديثه كما يحفظ القارى السورة (انظر السير ١٤/ ٣٧٢).

٢ ــ قال الإمام أبو العباس بن سريج وذكر له ابن خزيمة فقال: يستخرج النكت من حديث رسول الله بالمنقاش. (السير للذهبي).

٣ ــ وقال الحاكم: (. . . وله فقه حديث بريرة في ثلاثة أجزاء) (السير ١٤/ ٣٧٦).





الباب الرابع

حقيقة الفصام بين الفقه والحديث

حقيقة الفصام بين الفقه والحديث

قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى:

(... وكذلك رأينا خلقاً كثيراً يحرصون على جمع الكتب فينفقون أعمارهم في كتابتهم وكدأب أهل الحديث ينفقون الأعمار في النسخ والسماع إلى آخر العمر ثم ينقسمون. فمنهم من يتشاغل بالحديث وعلمه وتصحيحه ولعله لا يفهم جواب حادثه ولعل عنده للحديث ـ أسلم سالمها الله ـ مائة طريق.

وقد حكى لي عن بعض أصحاب الحديث أنه سمع جزء بن عرفة عن مائة شيخ وكان عنده سبعون نسخة.

ومنهم من يجمع الكتب ويسمعها ولا يدري ما فيها لا من صحة حديثها، ولا من فهم معناها. فتراه يقول: الكتاب الفلاني سماعي وعندي له نسخة، والكتاب الفلاني والفلاني فلا يعرف علم ما عنده من حيث فهم صحيحه من سقيمه.

وقد صده اشتغاله بذلك عن المهم من العلم فهم كما قال الحطيئة:

زوامــــل لـــلأخبـــار لا علـــم عنـــدهـــا
بمثقلهـــــا إلا كعلـــــم إلا بـــــاعـــــر
لعمـــرك مـــا يـــدري البعيـــر إذا غـــدا
بـــأوســـاقـــه أو راح مـــا فـــي الغـــرائـــر

ثم ترى منهم من يتصدر بإتقانه للرواية وحدها فيمد يده إلى ما ليس من شغله فإن افتى أخطأ وإن تكلم في الأصول خلط.

وقال في موضع آخر.. (... وقد رأينا في مشايخنا المحدثين من كان يسأل عن مسألة في الصلاة فلا يدري ما يقول)[1].

وقال أيضاً: (تأملت حالة تدخل على طلاب العلم توجب الغفلة عن المقصود وهو حرصهم على الكتابة، خصوصاً المحدثين فيستغرق ذلك زمانهم عن أن يحفظوا ويفهموا فيذهب العمر وقد عروا عن العلم إلا اليسير فمن وفق جعل معظم الزمان مصروفاً في الإعادة والحفظ وجعل

---

(١) صيد الخاطر (ص ٤١٠).

وقت التعب من التكرار للنسخ فيحصل له المراد. والموفق من طلب المهم. فإن العمر يعجز عن تحصيل الكل وجمهور العلوم الفقه وفي الناس من حصل له العلم وغفل عن العمل بمقتضاه وكأنه ما حصل شيئاً نعوذ بالله من الخذلان)[1].

وقال: ص ٥٥٨: ولما تشاغل بالطرق مثل يحيى بن معين فاته من الفقه كثير حتى أنه سئل عن الحائض. أيجوز أن تغسل الموتى؟ فلم يعلم حتى جاء أبو ثور فقال: يجوز لأن عائشة رضي الله عنها قالت: «كنت أرجل رأس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا حائض». فيحيى أعلم بالحديث منه ولكنه لم يتشاغل بالفهم.

فأنا أنهى أهل الحديث أن تشغلهم كثرة الطرق.

ومن أقبح الأشياء أن تجري حادثة يسأل عنها شيخ قد كتب الحديث ستين سنة فلا يعرف حكم الله عز وجل فيها.

وقال في تلبيس إبليس (ص ١١٤ ـ ١١٥): (ذكر تلبيس إبليس على أصحاب الحديث).

من ذلك أن قوماً استغرقوا أعمارهم في سماع الحديث

---

(١) ص ٤٨٩.

والرحلة فيه وجمع الطرق الكثيرة وطلب الأسانيد العالية والمتون الغريبة وهؤلاء عل قسمين:

قسم قصدوا حفظ الشرع بمعرفة صحيح الحديث من سقيمه وهم مشكورون على هذا القصد، إلا أن إبليس يلبس عليهم بأن يشغلهم بهذا عما هو فرض عين من معرفة ما يجب عليهم والاجتهاد في أداء اللازم والتفقه في الحديث.

(فإن قال قائل) فقد فعل هذا خلق كثير من السلف كيحيى بن معين وابن المديني والبخاري ومسلم.

فالجواب: أن أولئك جمعوا بين معرفة المهم من أمور الدين والفقه فيه، وبين ما طلبوا من الحديث. وأعانهم على ذلك قصر الإسناد وقلة الحديث فاتسع زمانهم للأمرين. فأما في هذا الزمان فإن طرق الحديث قد طالت والتصانيف فيه اتسعت وما في هذا الكتاب في تلك الكتب، وإنما الطرق تختلف. فقل أن يمكن أحداً أن يجمع بين الأمرين فترى المحدث يكتب ويسمع خمسين سنة ويجمع الكتب ولا يدري ما فيها ولو وقعت له حادثة في صلاته لافتقر إلى بعض أحداث المتفقهة الذين يترددون إليه لسماع الحديث منه وبهؤلاء تمكن الطاعنون على المحدثين فقالوا: زوامل أسفار لا يدرون ما معهم. فإن أفلح أحدهم ونظر في حديثه

فربما عمل بحديث منسوخ وربما فهم من الحديث ما يفهم العامي الجاهل وعمل بذلك وليس بالمراد من الحديث. كما روينا أن بعض المحدثين روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أنه نهى أن يسقي الرجل ماءه زرع غيره) فقال جماعة ممن حظر قد كنا إذا فضل عنا ماء في بساتيننا سرحناه إلى جيراننا ونحن نستغفر الله.

فما فهم القارىء ولا السامع ولا شعروا أن المراد وطء الحبالى من السبايا.

قال ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص ١١٨):

(كان الفقهاء في قديم الزمان هم أهل القرآن والحديث فما زال الأمر يتناقص حتى قال المتأخرون: يكفينا أن نعرف آيات الأحكام من القرآن وأن نعتمد على الكتب المشهورة في الحديث كسنن أبي داوود ونحوها ثم استهانوا بهذا الأمر أيضاً وصار أحدهم يحتج بآية لا يعرف معناها وبحديث لا يدري أصحيح هو أم لا. وربما اعتمد على قياس يعارضه حديث صحيح. ولا يعلم لقلة التفاته إلى معرفة النقل. وإنما الفقه استخراج من الكتاب والسنة فكيف يستخرج من شيء لا يعرفه. ومن القبيح تعليق حكم على حديث لا يدري أصحيح هو أم لا...). ا.هـ.

وكان الخطيب من أبرز هؤلاء الأئمة الذين حملوا لواء التوفيق بين الفريقين وقدموا النصيحة لأهل الحديث وأهل الفقه بأن يجلوا بعضهم ويستفيد كل منهم مما عند الآخر ويجالسه وبينوا لهم أن كلاً من الفريقين له الفضل الكبير وأن عليهم أن يتعاونوا على حمل قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفهمه فكل ميسر لما خلق له) ا. هـ.

قال الخطيب البغدادي كما في الفقيه والمتفقه (٢/ ٧١ - ٧٣) تحت باب: «إن مثل العلماء في الأرض كمثل نجوم السماء يهتدى بها في ظلمات البر والبحر»: (وقد جعل الله العلم وسائل أوليائه وعصم به من اختاره من أصفيائه فحقيق على المتوسم به استفراغ المجهود في طلبه وأهل العلم في حفظه متقاربون وفي استنباط فقهه متباينون ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم - وساق بإسناده - نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره فرب حامل فقه ليس بفقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه).

قال الخطيب رحمه الله: فأخبر صلى الله عليه وآله وسلم أنه قد يحمل الحديث من يكون له حافظاً ولا يكون فيه فقيهاً وأكثر كتبه الحديث في هذا الزمان بعيد من حفظه خال من معرفة فقهه، لا يفرقون بين معلل وصحيح ولا يميزون ما

بين معدل من الرواة ومجروح، ولا يسألون عن لفظ أشكل عليهم رسمه، ولا يبحثون عن معنى خفي عنهم علمه مع أنهم قد اذهبوا في كتبه أعمارهم وبعدت في الرحلة لسماعه أسفارهم فجعلوا لأهل البدع من المتكلمين، ومن غلب عليه الرأي من المتفقهين طريقاً إلى الطعن على أهل الآثار ومن شغل فيه بسماع الأحاديث والأخبار حتى وصفوهم بضروب الجهالات ونبزوهم بأسوأ المقالات وأطلقوا ألسنتهم بسبهم وتظاهروا بعيب المتقدمين وثلبهم وضربوا لهم المثل بقول الشاعر:

زوامـــل لـــلأسفـــار لا علـــم عنـــدهـــم
بجيـــــدهـــــا إلا كعلـــــم الأبـــــاعـــــر
لعمـــرك مـــا يـــدري المطـــيُ إذا غـــدا
بـــأحمـــالـــه أو راح مـــا فـــي الغـــرائـــر

كل ذلك لقلة بصيرة أهل زماننا بما جمعوه، وعدم فقههم بما كتبوه وسمعوه ومنعهم نفوسهم عن محاضرة الفقهاء وذمهم مستعملي القياس من العلماء، ولسماعهم الأحاديث التي تعلق بها أهل الظاهر في ذم الرأي والنهي عنه والتحذير منه وإنهم لم يميزوا بين محمود الرأي ومذمومه، بل سبق إلى نفوسهم أنه محظور على عمومه ثم قلدوا مستعملي الرأي في نوازلهم ويعولوا فيها على أقوالهم

ومذاهبهم، فنقضوا بذلك ما أحلوه واستحلوا ما كانوا حرموه وحق لمن كانت حاله هذه أن يطلق فيه القول الفظيع ويشنع عليه بضروب التشنيع. . . فبلغ مني ما ذكرته اغتماماً وأثارت معرفتي به اهتماماً لأمرين:

أحدهما: قصد من ذكرت لك والوقيعة في متقدمي أهل الحديث القائمين بحفظ الشريعة لأنهم رأس مالي، وإلى علمهم قالي، وبهم فحزي وجمالي، نحو مالك والأوزاعي، وشعبة والثوري ويحيى بن سعيد القطان، وابن مهدي عبد الرحمن، وعلي بن المديني الأمين، وأحمد بن حنبل، وابن معين ومن خلفهم من الأئمة الأعلام على مضي الأوقات وكدود الأيام فبهم في علم الحديث أكثر الفخر لا بناقليه وحامليه في هذا العصر.

والأمر الآخر: ازدراؤهم بمن في وقتنا من المتوسمين بالحديث من أهل عصرنا فإن لهم حرمة ترعى، وحقاً يجب أن يؤدى لتكرمهم بسماعه واكتتابه وتشبههم بأهله وأصحابه. . . إلخ).

وقال في نصيحة أهل الحديث: وإنما أسرعت السنة المخالفين إلى الطعن على المحدثين لجهلهم أصول الفقه وأدلته في ضمن السنن مع عدم معرفتهم بمواضعها فإذا عرف

صاحب الحديث بالتفقه خرست عنه الألسن وعظم محله في الصدور والأعين وخشي من كان عليه يطعن) ص ٤٠ .

قال الإمام الخطابي في مقدمة (معالم السنن) بعد أن ذكر أن أهل العلم في زمانه انقسموا إلى فريقين أهلُ حديث وأثر وأهل فقه ونظر وذكر إن كل طائفة في الحقيقة مفتقرة للأخرى ثم ذكر أنه قد حصل بينهم التهاجر. إلخ. . . قال:

(فأما هذه الطبقة الذين هم أهل الأثر والحديث فإن الأكثرين منهم إنما وكدوهم الروايات وجمع الطرق وطلب الغريب والشاذ من الحديث الذي أكثره موضوع أو مقلوب. لا يراعون المتون ولا يفقهون المعاني ولا يستنبطون سيرها ولا يستخرجون ركازها وفقهها وربما عابوا الفقهاء وتناولوهم بالطعن وادعوا عليهم مخالفة السنن ولا يعلمون أنهم عن مبلغ ما أوتوه من العلم قاصرون وبسوء القول فيهم آثمون).

(وأما الطبقة الأخرى ـ وهم أهل الفقه والنظر ـ فإن أكثرهم لا يعرجون من الحديث (إلا على أقله، ولا يكادون يميزون صحيحه من سقيمه، ولا يعرفون جيده من رديئه، ولا يعبأون بما بلغهم منه أن يحتجوا به على خصومهم إذا وافق مذاهبهم التي ينتحلونها ووافق آرائهم التي يعتقدونها).

وقال وكيع بن الجراح: «يا فتيان تفهموا فقه الحديث فإنكم إن تفهمتم فقه الحديث لم يقهركم أهل الرأي».

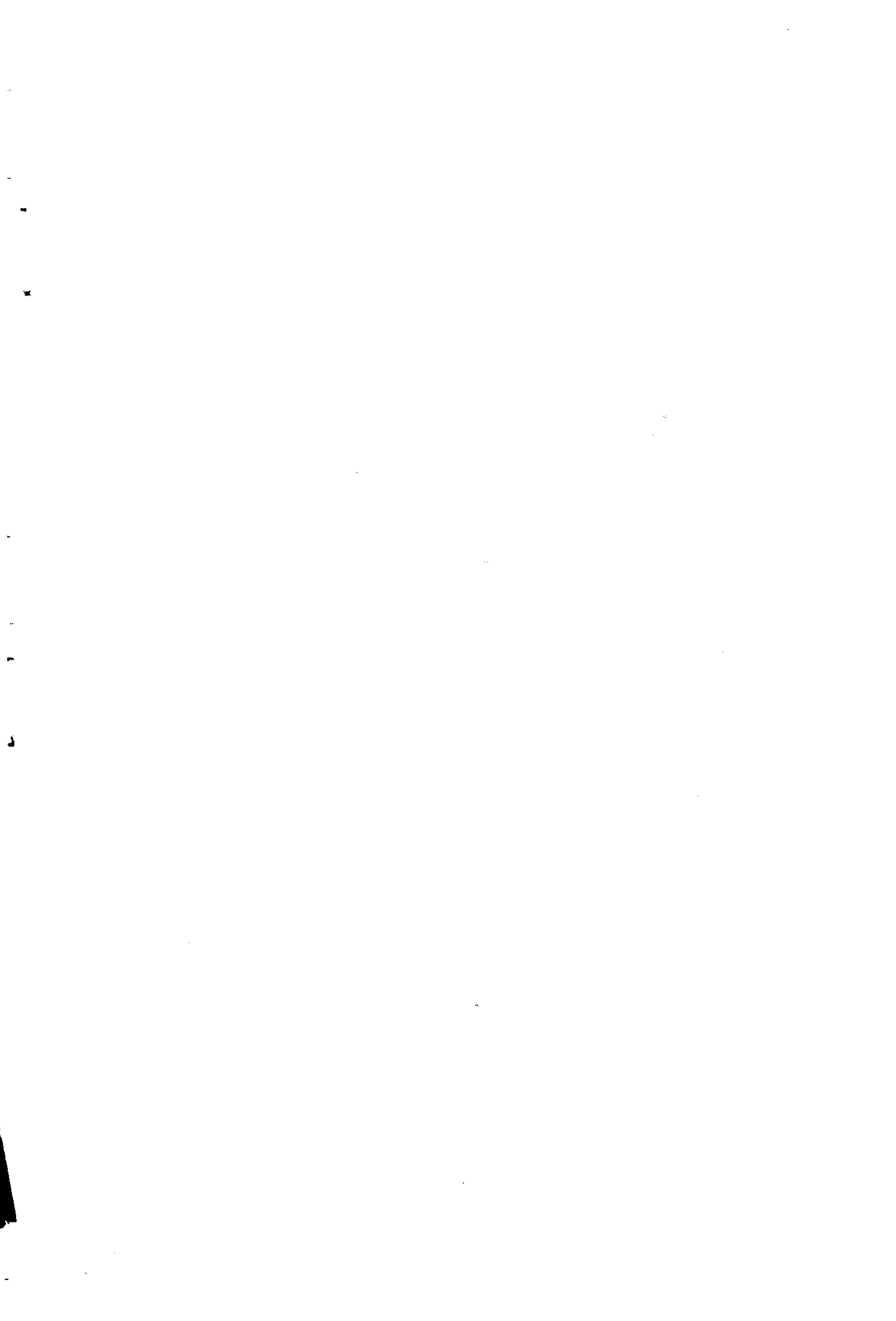
وقال أيضاً: «لو أنكم تفقهتم الحديث وتعلمتموه ما غلبكم أصحاب الرأي. ما قال أبو حنيفة في شيء يحتاج إليه إلا ونحن نروي فيه باباً»[1].

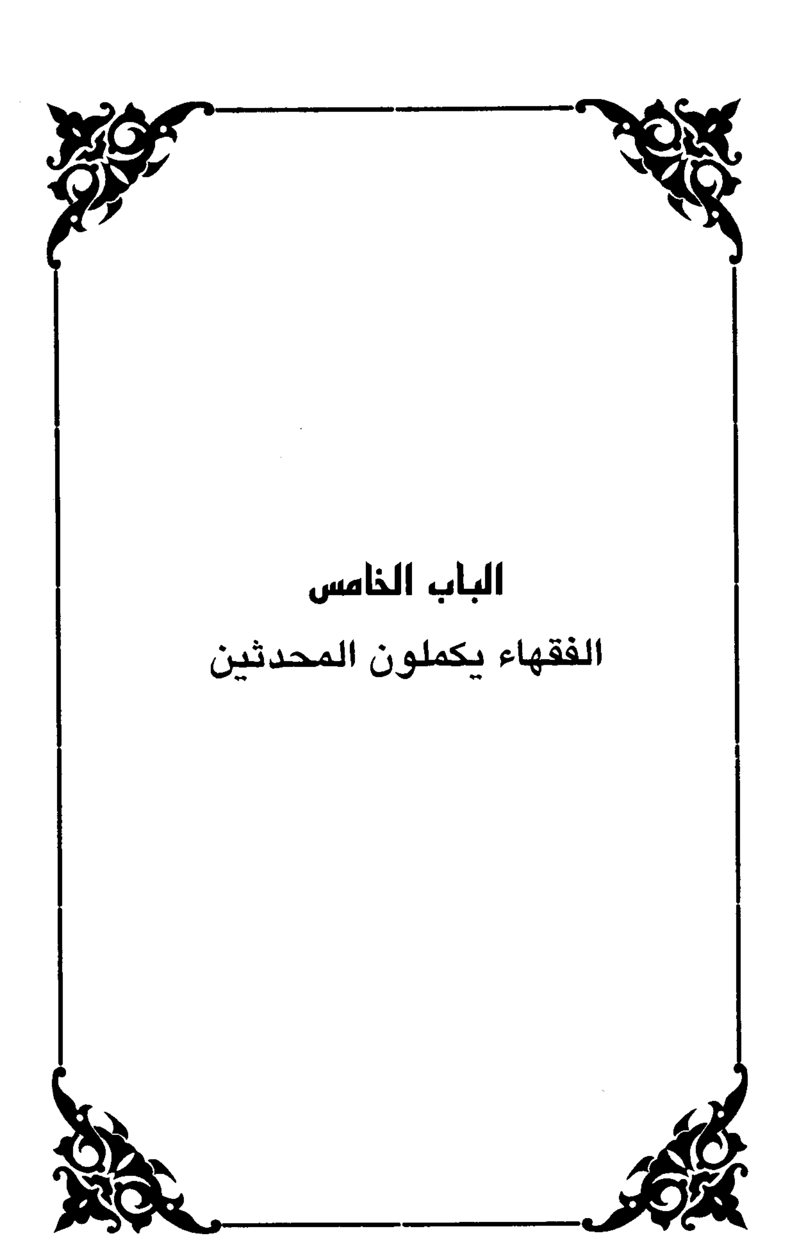
وقال الدكتور محمود بن أحمد الطحان في رسالته (الخطيب البغدادي بين المحدثين والفقهاء ص ١٨) (... والظاهر أن نفرة مصطعنة يثيرها بين المحدثين والفقهاء من القديم بعض صغار المتفقهة وكتبه الحديث لضيق أفقهم ولقصر نظرهم وذلك بتبادل الغمزات والطعون بين الفريقين وربما كان عن حسن نية منهم ولكن بدون إدراك فحقيقة ما عليه الفريق الموجه إليه الغمز أو الطعن.

ولو ترك الأمر لاتسعت النفرة بين الفريقين ولأدى إلى ما لا يحمد عقباه بين طائفتين من خيار علماء المسلمين لذلك فقد كان يقوم إمام من أئمة الحديث أو الفقه بنصيحة أولئك الاتباع المتشددين من الفريقين كلما ظهرت صيحات الطعن واللمز التي تثير النفرة والقطيعة بين الطرفين). ا.هـ.

---

(١) نصيحة أهل الحديث ص ٤١.





الباب الخامس

الفقهاء يكملون المحدثين

الفقهاء يكملون المحدثين

روى الإمام الخطيب بإسناده كما في نصيحة أهل الحديث ص ٤٤ إلى عبيد الله بن عمرو قال: (جاء رجل إلى الأعمش فسأله عن مسألة وأبو حنيفة جالس فقال الأعمش: يا نعمان قل فيها فأجابه، فقال الأعمش: من أين قلت هذا؟ فقال: من حديثك الذي حدثتناه، قال: نعم، نحن صيادلة وأنتم أطباء).

وقال الإمام الخطابي في مقدمة كتابه (معالم السنن) (١/ ٧٥): (ورأيت أهل العلم في زماننا قد حصلوا حزبين وانقسموا إلى فرقتين أصحاب حديث وأثر وأهل فقه ونظر وكل واحده منهما لا تتميز عن أختها في الحاجة ولا تستغني عنها في درك ما تنحوه من البغية والإرادة لأن الحديث بمنزلة الأساس الذي هو الأصل والفقه بمنزلة البناء الذي هو له كالفرع وكل بناء لم يوضع على قاعدة وأساس فهو منهار وكل أساس خلا عن بناء وعمارة فهو قفر وخراب ووجدت هذين الفريقين على ما بينهم من التداني في المحلين

والتقارب في المنزلين وعموم الحاجة من بعضهم إلى بعض وشمول الفاقة اللازمة لكل منهم إلى صاحبه ـ إخواناً متهاجرين ـ وعلى سبيل الحق بلزوم التناصر والتعاون غير متضاهرين).

وقال الإمام أبو عاصم النبيل (الرئاسة في الحديث بلا دراية رئاسة نذالة) الجامع لآداب الراوي وأخلاق السامع (٢/ ١٨١) و المحدث الفاصل ص **٢٥٣**.

وقال الإمام علي بن المديني: (التفقه في معاني الحديث نصف العلم ومعرفة الرجال نصف العلم).

وقال الشوكاني في أدب الطلب (٤٥ ـ ٤٦): (والمتصدر للتصنيف في كتب الفقه وإن بلغ في اتقانه واتقان علم الأصول وسائر الفنون الآلية إلى حد يتقاصر عنه الوصف إذا لم يتقن علم السنة ويعرف صحيحه من سقيمه ويعول على أهله في إصداره وإيراده كانت مصنفاته مبنية على غير أساس لأن علم الفقه هو مأخوذ من علم السنة إلا القليل منه وهو ما قد صرح بحكمه القرآن الكريم فما يصنع ذو الفنون بفنونه إذا لم يكن عالماً بعلم الحديث متقناً له معولاً على المصنفات فيه) ا. هـ.

وقال الإمام الرامهرمزي في كتابه (المحدث الفاصل)

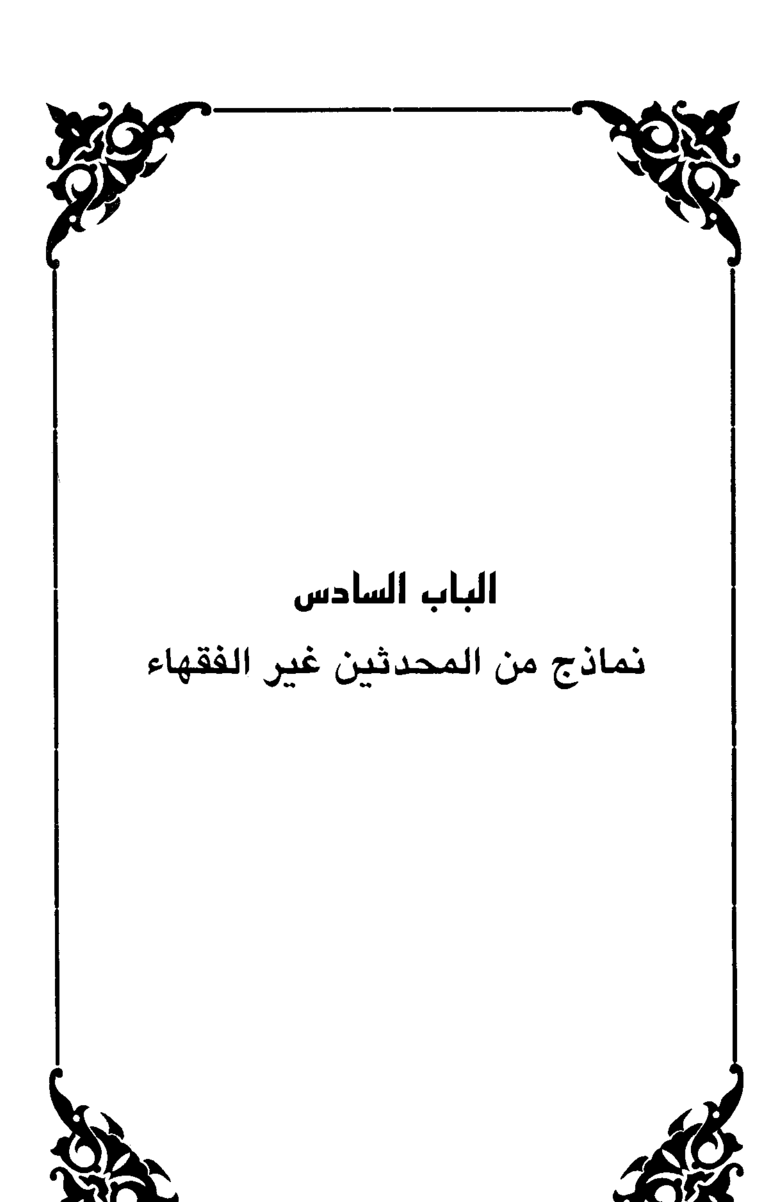
بعد أن ذكر بعض الحاقدين على أهل الحديث وتنقصه منهم قال أثناء رده عليه:

(.. ألا تأدب بأدب العلم وخفض جناحه لمن تعلق بشيء منه ولم يبهرج شيوخه الذين عنهم أخذ وبهم تصدر وأوفى الفقهاء حقوقهم من الفضل ولم يبخس الرواة حضوضهم من النقل ورغب الرواة في التفقه والمتفقهة في الحديث. وقال بفضل الفريقين وحض على سلوك الطريقين فإنهما يكملان إذا اجتمعا وينقصان إذا افترقا).

وقال الزمخشري (العلم مدينة أحد بابيها الرواية والثاني الدراية)[1].

---

(١) عن كتاب (دراسة حديث نضّر الله امرءاً) للشيخ العباد ص ٢.



الباب السادس

نماذج من المحدثين غير الفقهاء

نماذج من المحدثين غير الفقهاء

قال الخطابي رحمه الله: ـ وكان بعض مشايخنا يروي الحديث (أن النبيَ صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن الحلق قبل الصلاة يوم الجمعة بإسكان اللام ـ قال: وأخبرني أنه بقي أربعين سنة لا يحلق رأسه قبل الصلاة قال: فقلت له إنما هو الحلق جمع حلقه وإنما كره الاجتماع قبل الصلاة للعلم والمذاكرة وأمر أن يشتغل بالصلاة وينصت للخطبة فقال قد فرجت عليَّ وكان من الصالحين. وقد كان ابن صاعد كبير القدر من المحدثين لكنه لما قلت مخاطبة للفقهاء كان لا يفهم جواب فتوى حتى أنه قد أخبرنا أبو منصور البزار نا أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت قال سمعت البرقاني يقول قال أبو بكر الأبهري الفقيه قال: كنت عند يحيى بن محمد بن صاعد فجاءته امرأة فقالت: أيها الشيخ ما تقول في بئر سقطت فيه دجاجة فماتت فهل الماء طاهر أو نجس؟ فقال يحيى: ويحك: كيف سقطت دجاجة إلى البئر؟ قالت: لم تكن البئر مغطاة فقال يحيى: ألا غطيتها حتى لا

يقع فيها شيء. قال الأبهري: فقلت: يا هذه إن كان الماء تغير فهو نجس وإلا فهو طاهر. قال ابن الجوزي رحمه الله. وكان ابن شاهين قد صنف من الحديث مصنفات كثيرة أقلها جزء وأكثر التفسير وهو ألف جزء. وما كان يعرف من الفقه شيئاً وقد كان فيهم من يقوم على الفتوى بالخطأ لئلا يرى بعين الجهل فكان فيهم من يصير بما يفتي به ضحكة. فسئل بعضهم عن مسألة من الفرائض فكتب من الفتوى تقسم على فرائض الله سبحانه وتعالى. ثم ساق إسناده إلى إبراهيم الحربي قال: بلغني أن مرأة جاءت إلى علي بن داود وهو يحدث وبين يديه مقدار ألف نفس فقالت له: حلفت بصدقة إزارى. فقال لها: بكم اشتريتيه؟ قالت: باثنين وعشرين درهماً: قال: اذهبي فصومي اثنين وعشرين يوماً. فلما مرت جعل يقول: آه. آه غلطنا والله أمرناها بكفارة الظهار. قال ابن الجوزي رحمه الله فانظروا إلى هاتين الفضيحتين. فضيحة الجهل وفضيحة الإقدام على الفتوى بمثل هذا التخليط) ١١٥ ـ ١١٦ تلبيس.

ذكر الخطيب البغدادي رحمه الله في (نصيحة أهل الحديث ص ٣٨ ـ ٣٩) أن امرأة وقفت على مجلس فيه يحيى بن معين وأبو خيثمة وخلف بن سالم في جماعة

يتذاكرون الحديث. فسمعتهم يقولون قال رسول الله ﷺ، وقد رواه فلان وما حدث به غير فلان فسألتهم عن الحائض تغسل الموتى - وكانت غاسلة. فلم يجبها أحد منهم وجعل بعضهم ينظر إلى بعض فأقبل أبو ثور فقالوا لها. عليك بالمقبل. فالتفتت إليه وقد دنا منها فسألته: فقال: نعم تغسل الميت لحديث القاسم عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لها: إن حيضتك ليست في يدك ولقولها: كنت أفرق رأس النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنا حائض. قال أبو ثور: فإذا فرقت رأس الحي فالميت أولى: فقالوا نعم. رواه فلان وحدثنا فلان ويعرفونه من طريق كذا وخاضوا في الطرق فقالت المرأة: فأين كنتم إلى الآن[1].

(١) أخرجها أيضاً الرامهرمزي في المحدث الفاصل ص ٢٤٩.




الباب السابع

فضل من جمع بين الرواية والدراية

فضل من جمع بين الرواية والدراية

١ ـ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان عمر يأذن لأهل بدر ويأذن لي معهم، فوجد بعضهم من ذلك وقالوا يأذن لهذا الفتى معنا ومن أبنائنا من هو مثله؟. قال: فبلغ ذلك عمر فقال لهم: إنه ممن قد علمتم أو من حيث علمتم. وقال لهم ذات يوم. وأذن لي معهم ثم سألهم عن تفسير «إذا جاء نصر الله والفتح» فقالوا: أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفر وأن يتـوب. فقال عمر لي: ما تقول يا ابن العباس؟ قلت ليس كما قالوا قال: فقل: قلت: الفتح. فتح مكة. اعلم الله نبيه إذا فتح عليه مكة: ورأى الناس يدخلون في دين الله أفواجاً أن يسبحه وييستغفره واعلمه موته. فقال عمر: تلومونني عليه بعد هذا!؟[1].

٢ ـ أخرج الإمام الرامهرمزي في (المحدث الفاصل) ص ٢٤١، ٢٤٢. من طريق مصعب الزبيري قال: سمعت

---

(١) أخرجه البخاري وغيره انظر «المحدث الفاصل» ص ٢٣٩.

مالك بن أنس: وقد قال لابني أخته أبي بكر وإسماعيل بن أبـي أويـس: أراكمـا تحبـان هـذا الشـأن وتطلبـانـه - يعنـي الحديث. قالا: نعم. قال: إن احببتما أن تنتفعا وينفع الله بكما فأقلا منه وتفقها. وأخرج أيضاً ص **٢٤٥** عن طريق مسعود بن سليم قال: ابتنى معاوية بالأبطح مجلساً فجلس عليه ومعه ابنه قرظة فإذا هو بجماعة على رحال وشاب منهم قدر رفع عقيرته يغني:

بينمـــا يـــذكـــرننـــي أبصـــرننـــي
عنـــد قيـــد الـمـيـل يسعـــى بـــي الأغـــر
قلـــن تعـــرفـــن الفتـــى قلنـــا نعـــم
قـــد عـــرفنـــاه.. وهـــل يخفـــى القمـــر.

قال: من هذا؟ قالوا: عمر بن أبي ربيعة قال: خلوا له الطريق فليذهب: قال: ثم إذا هو بجماعة وإذا رجل يسأل يقال له: رميت قبل أن أحلق، وحلقت قبل أن أرمي لأشياء أشكلته عليهم من مناسك الحج قال: من هذا؟ قالوا: عبد الله بن عمر فالتفت إلى ابنه قرظة: قال: هذا وأبيك الشرف هذا والله شرف الدنيا والآخرة. وأخرج: ص **٢٥٢**: من طريق ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: قال: رسول الله صلـى الله عليـه وآلـه وسلـم: «لا عقـر فـي الإسـلام» قـال

محمد بن سعيد الترمذي: فسألت أبا عبيد عن العقر. فقال: لا أدري ثم سألوا أبا عبد الله بن الأعرابي عنها فقال: لا أدري. ثم سألوا أبا عمرو الشيباني فقال: لا أدري فقيل: سلوا أهلها: فقالوا لأحمد بن حنبل: ما معنى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم «لا عقر في الإسلام» فقال: كانوا في الجاهلية إذا مات فيهم السيد عقروا على قبره، فنهى النبي ﷺ عن ذلك فقال: (لا عقر في الإسلام). قال محمد بن سعيد: فأخبرت أبا عمر هلال بن العلاء الرقي: فاعجب بقول أحمد وأنشد:

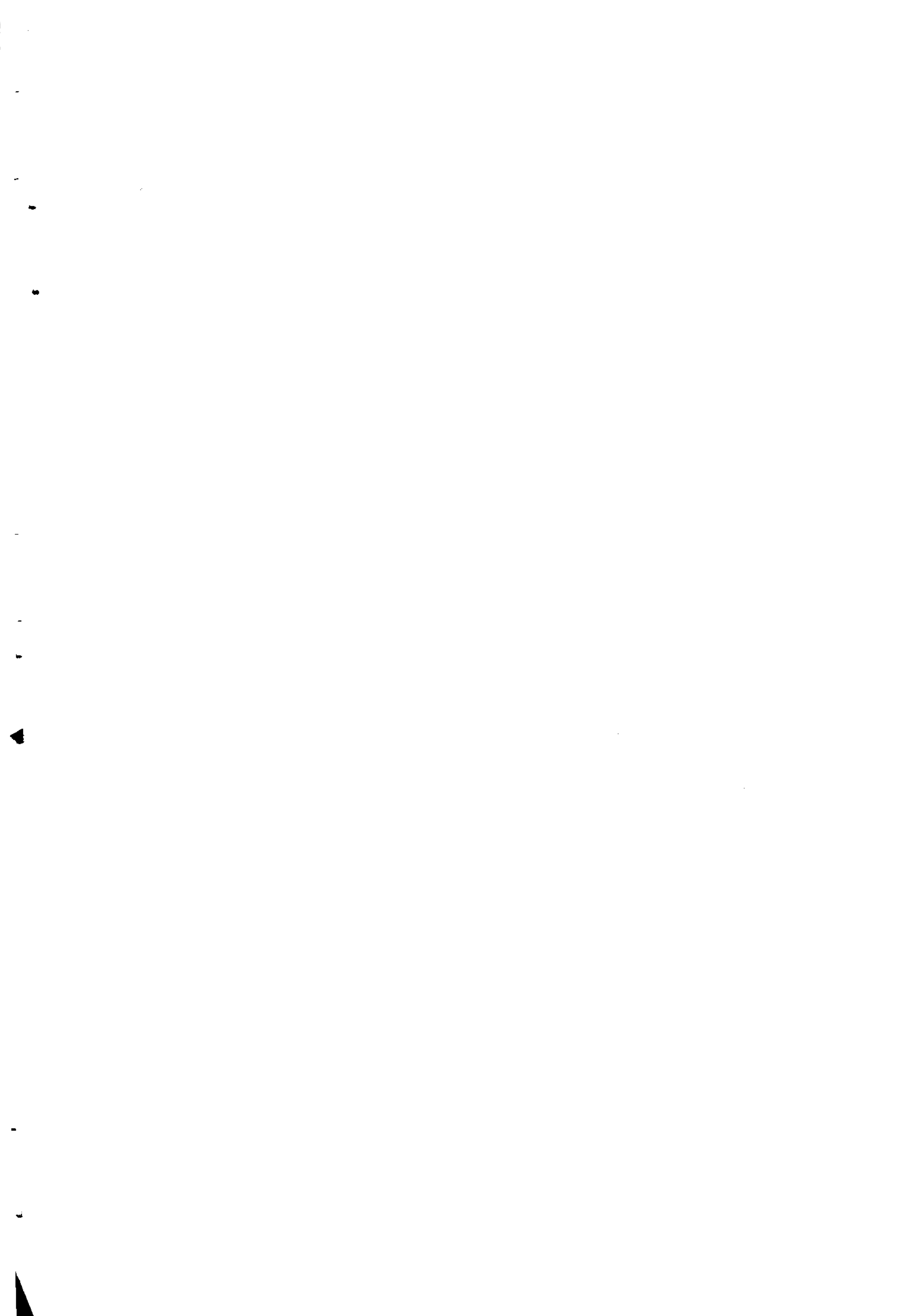
وإذا مررت بقبره فاعْقُر به
كُوَمَ الهجات وكلُّ طرف سابح

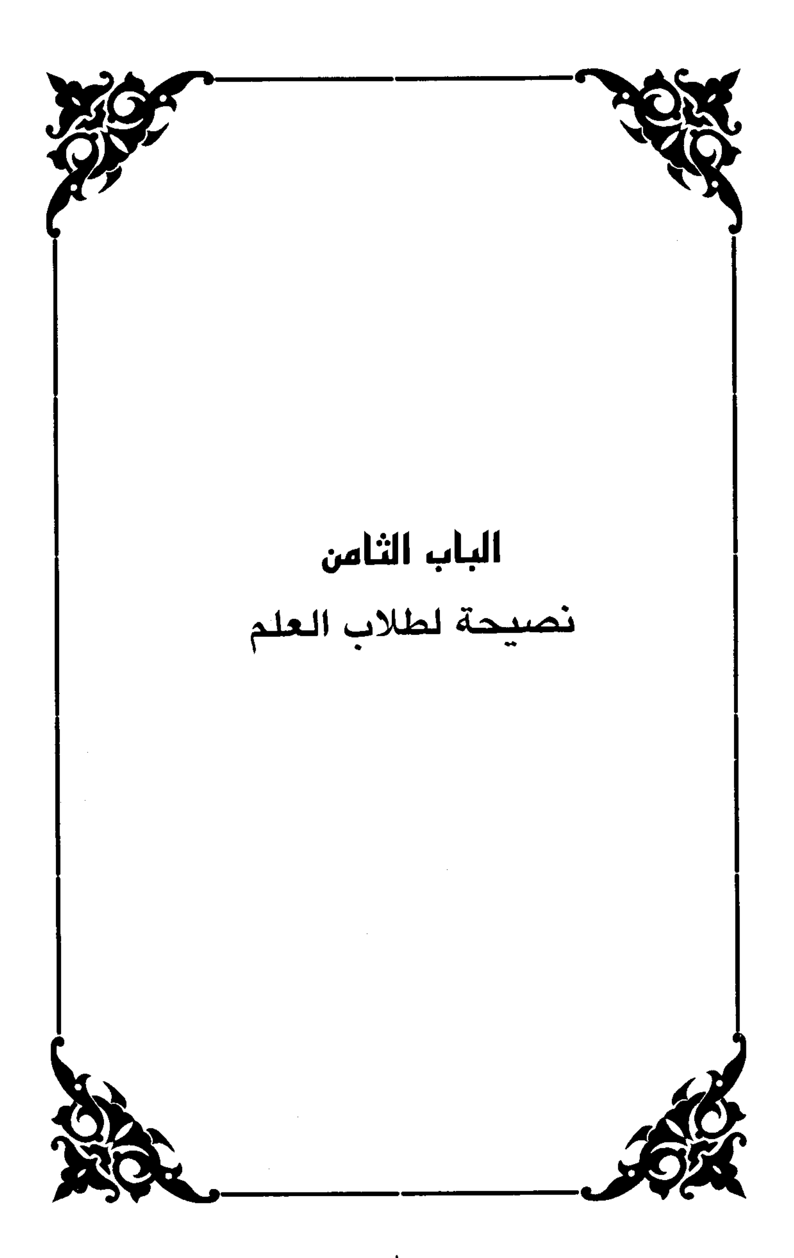
ثم قال لي: عُقر من الجاهلية على قبر ربيعة بن مكدم وفي الإسلام على قبر المغيرة بن المهلب عقر عليه كعب بن أبي سود وروى الخطيب البغدادي بإسناده في (نصيحة أهل الحديث) ص ٤٠ برقم (١٨) إلى وكيع بن الجراح أنه قال:

«لقيني أبو حنيفة فقال لي: لو تركت كتابة الحديث وتفقهت أليس كان خيراً؟ قلت: فليس الحديث يجمع الفقه كله قال: ما تقول في امرأة ادعت الحمل وأنكر الزوج؟ فقلت له: حدثني عباد بن منصور عن عكر ـ عن ابن عباس

رضي الله عنهما (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لاعن بالحمل فتركني فكان بعد ذلك إذا رآني في طريق أخذ من طريق آخر».

وأخرج عنه أيضاً: ص ٤١ : أنه قال: يا فتيان تفهموا فقه الحديث فإنكم إن تفهمتم فقه الحديث لم يقعدكم أهل الرأي) وعنه أيضاً أنه قال لأصحاب الحديث (لو أنكم تفقهتم الحديث وتعلمتموه ما غلبكم أصحاب الرأي ما قال أبو حنيفة عن شيء يحتاج إليه إلا ونحن نروي فيه باباً. .





الباب الثامن

نصيحة لطلاب العلم

نصيحة لطلاب العلم

وأخيراً يا طالب العلم عليك أن تجد وتجتهد في الطلب وتخلص نيتك لله عز وجل وعليك أن تتدرج في أخذك للعلم كما كان يفعل سلف هذه الأمة وإياك والعجلة في التحصيل بل عليك بصغار العلم قبل كباره. ففي جانب العقيدة:

عليك أن تبدأ بمثل (الأصول الثلاثة وكتاب التوحيد) كلاهما للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ثم تنتقل إلى بعض كتب شيخ الإسلام ابن تيمية مثل (الواسطية، والحموية، والتدمرية).

ثم تنتقل إلى (العقيدة الطحاوية) لأبي جعفر الطحاوي وشرحها لابن أبي العز الحنفي، فإذا أردت التوسع بعد اتقانك لما تقدم فعليك بأبواب (الإيمان والتوحيد والاعتصام بالسنة) من صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي وغير ذلك من الأمهات.

أما في الفقه عليك أن تسلك طريق التمذهب ـ من غير

تقليد أعمى ـ فذلك هو أقوم طريق للتفقه فتأخذ متناً من المتون التي يبتدىء بها الطالب بحيث تكون سليمة من التعقيدات اللفظية فمثلاً إن اخترت المذهب الشافعي فتبدأ (بمتن أبي شجاع) ثم شرحه (كفاية الأخيار) ثم تتنقل إلى (المنهاج) ثم تطالع الكتب المقارنة كالمجموع وهكذا.

وكذلك ينبغي التدرج في النحو ومصطلح الحديث وأصول الفقه والتفسير والحديث....)[1].

وأحذرك يا طالب العلم أن تكون (أبا شبر) فإن العلم كما قالوا ثلاثة أشبار فمن أخذ الشبر الأول تكبر ومن أخذ الشبر الثاني تواضع ومن أخذ الشبر الثالث علم أنه لا يزال جاهلاً. فاللهم فقهنا في دينك يا كريم.

ثم أوصيك بالحفظ فإن العلم ما حواه الصدر لا ما حواه السطر[2].

قال الشاعر:

استودع العلم قرطاساً فضيعه
وبئس مستودع العلم القراطيس

---

(١) وعليك باقتناء وقراءة الرسالة النافعة المباركة للشيخ الدكتور عبد العزيز القارىء (برنامج عملي للمتفقهين).

(٢) راجع كتاب (حفظ العلم) لابن الجوزي رحمه الله.

وقال آخر:

وليس علماً ما حوى القمطر
ما العلم إلا ما حواه الصدر

وقال آخر:

إذا لم تكن حافظاً واعياً
فجمعك للكتب لا ينفع
أأحضر بالجهل في مجلس
وعلمي في الكتب مستودع

قال ابن عبد البر في التمهيد (١٤/ ١٣٣ ـ ١٣٤) بعد أن ذكر حديث (إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت):

(وفي هذا الحديث دليل على أن من لم يتعاهد علمه ذهب عنه أياً من كان لأن علمهم كان ذلك الوقت القرآن لا غير وإذا كان القرآن الميسر للذكر يذهب إن لم يتعهد فما ظنك بغيره من العلوم المعهودة وخير العلوم ما ضبط أصله واستذكر فرعه وقاد إلى الله تعالى ودل على ما يرضاه) اهـ.

فإذا أردت أن تحفظ فلا علاج لذلك مثل تقوى الله تعالى وترك المعاصي كما نصح بذلك الإمام وكيع بن

الجراح الإمامَ الشافعي لما شكى له سوء حفظه فأنشد الشافعي رحمه الله:

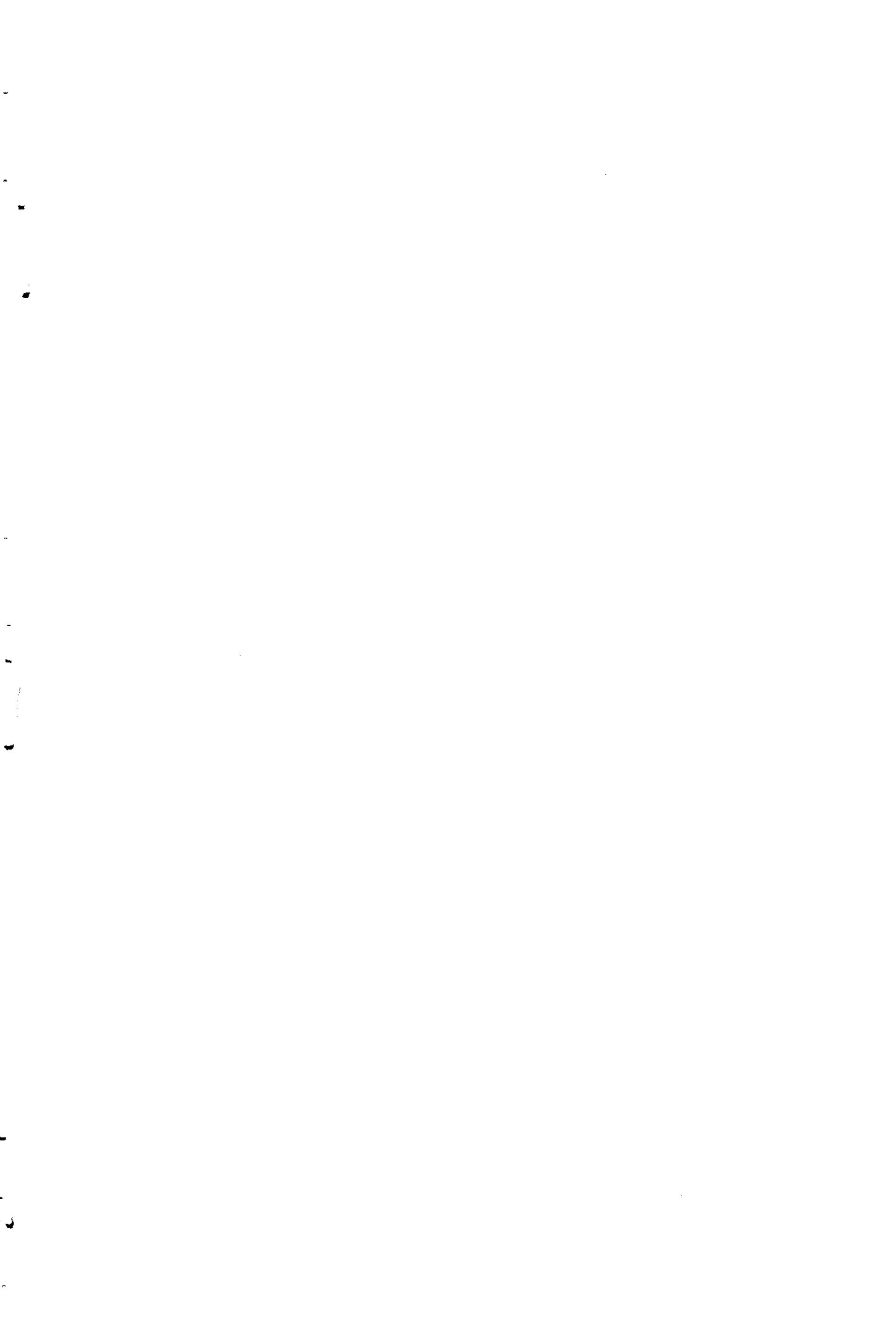
شكـــوت إلـــى وكيـــع ســـوء حفظـــي
فـــأرشـــدنـــي إلـــى تـــرك المعـــاصـــي

وقـــال أعلـــم بـــأن العلـــم نـــور
ونـــور الله لا يهـــدى لعـــاصـــي

ثم عليك بأن تتبع العلم بالعمل فإن الله تعالى يقول: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

فإذا عملت فعليك بالدعوة لقول الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

فإذا دعوت فارتقب الأذى من الناس ولكن عليك بالصبر قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ وقال: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾ وقال: ﴿ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.





الباب التاسع

علاج هذه الظاهرة

العـلاج

(أعظم دليل علىٰ فضيلة الشيء النظر إلى ثمرته ومن تأمل ثمرة الفقه علم أنه أفضل العلوم فإن أرباب المذاهب فاقوا بالفقه علىٰ الخلائق أبداً وإن كان في زمن أحدهم من هو أعلم منه بالقرآن أو بالحديث أو باللغة. واعتبر هذا بأهل زماننا فإنك ترىٰ الشاب يعرف مسائل الخلاف الظاهرة فيستغني ويعرف حكم الله تعالىٰ في الحوادث ما لا يعرفه النحرير من باقي العلماء.

وكم رأينا مبـرزاً في علم القرآن أو في الحديث أو في التفسير أو في اللغة لا يعرف مع الشيخوخة معظم أحكام الشرع وربما جهل علم ما ينويه في صلاته على أنه ينبغي للفقيه ألا يكون أجنبياً عن باقي العلوم فإنه لا يكون فقيهاً بل يأخذ من كل علم بحظ ثم يتوفر علىٰ الفقه فإنه عز الدنيا والآخرة)[1].

وفي موضع آخر قال: (... أما العالم فلا أقول له

---

(١) صيد الخاطر (٢٢٤) ط دار الكتاب الطبعة الأولىٰ.

أشبع من العلم ولا اقتصر على بعضه بل أقول له قدم المهم فإن العاقل من قدر عمره وعمل بمقتضاه وإن كان لا سبيل إلىٰ العلم بمقدار العمر غير أنه يبني علىٰ الأغلب. . .)

فإذا علم العاقل أن العمر قصير وأن العلم كثير فقبيح بالعاقل الطالب لكمال الفضائل أن يتشاغل مثلاً بسماع الحديث ونسخه ليحصل كل طريف وكل رواية وكل غريب.

وهذا لا يفرغ من مقصوده منه في خمسين سنة خصوصاً إن تشاغل بالنسخ ثم لا يحفظ القرآن أو يتشاغل بعلوم القرآن ولا يعرف الحديث. أو بالخلاف في الفقه ولا يعرف النقل الذي عليه مدار المسألة.

فإن قال قائل: فدبر لي ما تختار لنفسك.

فأقول: ذو الهمة لا يخفىٰ من زمان الصبا.

ثم أجاب رحمه الله ما ملخصه:

١ ـ يبدأ بالقرآن وحفظه وينظر في تفسيره نظراً متوسطاً.

٢ ـ إن أمكن أخذ القراآت السبع.

٣ ـ يأخذ شيئاً من النحو وكتب اللغة.

٤ ـ ثم يبدأ بأصول الحديث كالصحاح والمسانيد والسنن ومن حيث علم الحديث كمعرفة الضعفاء والأسماء. فلينظر في أصول ذلك.

٥ ـ ثم ينظر في التواريخ ليعرف ما لا يستغنى عنه كنسب رسول الله ﷺ وأقاربه وأزواجه وما جرىٰ له.

٦ ـ ثم ليقبل علىٰ الفقه فلينظر في المذهب والخلاف وليكن إعتماده على مسائل الخلاف فلينظر في المسألة وما تحتوي عليه فيطلبه من مظانه كتفسير آية وحديث وعلم لغة.

٧ ـ ويتشاغل بأصول الفقه وبالفرائض وليعلم أن الفقه عليه مدار العلوم.

٨ ـ فإن اتسع الزمان للتزيد من العلم فليكن من الفقه فإنه الأنفع.

٩ ـ ومهما فسح له في المهل فأمكنه التصنيف في علم فإنه يخلف بذلك خلفه خلفاً صالحاً)[١] وقال في موضع آخر: (. . . . فاللازم في العلم طلب المهم فرب صاحب حديث حفظ مثلاً لحديث (من أتىٰ الجمعة فليغتسل) عشرين طريقاً والحديث قد ثبت من طريق واحد فشغله ذلك عن معرفة آداب الغسل)[٢].

وقال أيضاً (وقد كان المحدثون قديماً هم الفقهاء ثم صار الفقهاء لا يعرفون الحديث والمحدثون لا يعرفون الفقه

(١) صيد الخاطر (٢٣١ ـ ٢٣٣).
(٢) ص ٢٨٠.

فمن كان ذا همة ونصح نفسه تشاغل بالمهم من كل علم وجعل جلَّ شغله الفقه فهو أعظم العلوم وأهمها).

ويقول الإمام الخطيب البغدادي «رحمه الله» كما في الفقيه والمتفقه (٢/ ٧٧ ـ ٧٨) (ورسمت في هذا الكتاب لصاحب الحديث خاصة ولغيره عامة ما أقوله نصيحة مني له وغيره عليه وهو أن يتميز عمن رضي لنفسه بالجهل ولم يكن فيه معنى يلحقه بأهل الفضل وينظر فيما أذهب فيه معظم وقته وقطع به أكثر عمره من كتب حديث رسول الله ﷺ وجمعه ويبحث عن علم ما أمر به من معرفة حلاله وحرامه وخاصه وعامه وفرضه وندبه وإباحته وحظره وناسخه ومنسوخه وغير ذلك من أنواع علومه قبل فوات إدراك ذلك فيه).

وقال رحمه الله في نصيحة أهل الحديث ص ٣:

(وليعلم أن الإكثار من كتب الحديث وروايته لا يصير الرجل فقيهاً وإنما يتفقه بإستنباط معانيه وإنعام النظر فيه).

وفي ص ٤٢ قال: (ولا بد للمتفقه من أستاذ يدرس عليه ويرجع في تفسير ما أشكل إليه ويتعرف منه طرق الاجتهاد وما يفرق به بين الصحة والفساد).

وقال الإمام الرامهرمزي في مقدمة كتابه (المحدث

الفاصل) ناصحاً طلاب الحديث: (فتمسكوا - جبركم الله - بحديث نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم وتبينوا معانيه وتفقهوا به وتأدبوا بآدابه ودعوا ما به تعيرون من تتبع الطرق وتكثير الأسانيد وتطلب شواذ الأحاديث وما دلسه المجانين وتبلبل فيه المغفلون واجتهدوا في أن توفوه حقه من التهذيب والضبط والتقويم لتشرفوا به في المشاهد وتنطلق ألسنتكم في المجالس ولا تحفلوا بمن يعترض عليكم حسداً علىٰ ما أتاكم الله من فضله فإن الحديث ذكر لا يحبه إلا الذكران ونسب لا يجهل بكل مكان).

قلت: وأنا أذكر بعض الحلول والعلاجات لعلها تكون سبباً في الأخذ بيد هذه الأمة حتىٰ تنهض من جديد لتقوم بالدور الذي قام به سلف هذه الأمة.

١ ـ يجب علىٰ الجماعات الإسلامية العاملة في الساحة أن تتعاون فيما بينها وذلك بإلقاء الدروس والمحاضرات وأن تفسح كل جماعة للجماعة الأخرىٰ بالإلتقاء والإختلاط بأفرادها وأن تعمل كل جماعة جاهدة لكسر الحواجز والحدود الوهمية التي ضربها بعض الجهلاء من مسؤوليها - هذا التعاون للأسباب التالية:

أ ـ إن من الجماعات من صار متخصصاً بالأمور

السياسية مغفلاً للعلم الشرعي مما أدىٰ إلى الوقوع في كثير من المخالفات الشرعية.

ب ــ إن من الجماعات من تهتم بالعلوم الشرعية إلا أنها ليست بملمة بمعرفة الواقع.

ج ــ إن من الجماعات من جعلت دعوتها منحصرة في فضائل الأعمال والسياحة في الأرض شرقاً وغرباً للدعوة إلى ذلك مع عدم التعويل علىٰ العلم الشرعي وفقه الواقع. فإذا عملت الجماعات الإسلامية بهذه النصيحة فإن تربية الأفراد ستكون متكاملة مما يؤدي إلى النهوض بهذه الأمة والقيام بالواجب علىٰ أفضل وجه.

٢ ــ الابتعاد عن الولاآت الضيقة التي أبعدت كثيراً من أفراد الأمة عن العلماء نظراً لعدم انخراطهم في الجماعات أو التنظيمات المعاصرة مما أدىٰ إلى ربط الأفراد بغير العلماء فنشأ ما نشأ من الجهل بدين الله تعالىٰ.

٣ ــ يجب أن يؤخذ العلم بشموليته وكل فن عن أهله فلا يؤخذ الفقه من المفسر ولا الحديث من الأخباري وهكذا ويجب أن لا يتفقه الطالب من الكتب مباشرة.

٤ ــ يجب أن لا ننسىٰ الفقه الأكبر ـ وهو علم العقيدة ـ فيجب أن يكون علىٰ طريقة سلف هذه الأمة.

٥ ــ يجب أن لا ننسىٰ معرفة فقه الواقع وما يدور في الساحة وأن يكمِّل بعضنا بعضاً ولا يجوز التنابز بالألقاب فإنني كثيراً ما أسمع من البعض يقول: فلان لا يعرف الواقع ولا يفهم في السياسة. . . .).

٦ ــ يجب معرفة الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة حتىٰ لا يستدل المستدل بحديث منسوخ.

٧ ــ ينبغي الجمع بين علمي الدراية والرواية فإن لم يمكن ذلك فليستفد كل فريق من الآخر مع عدم التنابز بالألقاب بل يجب على كل فريق أن يعرف فضل الفريق الآخر.

٨ ــ يجب الابتعاد عن الاستدلال بالأحاديث الضعيفة والموضوعة حتى لا ندخل في باب الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٩ ــ يجب أن يكون التفقه على غير الطريقة التقليدية بل لابد من التحرر من المذهبية وربط كل مسألة بدليلها.

الخلاصة

لقد كان المحدثون الأوائل هم الفقهاء الذين جمعوا بين الرواية والدراية وذلك مثل الإمام الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل والبخاري ومسلم والنسائي وأبي داوود والترمذي وغيرهم رحمة الله علىٰ الجميع ثم نشأ بعد ذلك من جعل همه في جمع الأسانيد والإستكثار منها ولم يعرج إلى فقه النصوص وفي الجانب الآخر وجد من يهتم بالفقه ولا ينظر في الحديث هل صح أم لم يصح بل قد يكون الحديث موضوعاً وترىٰ بعضهم يوصل ويفرع على ذلك الحديث. ومنهم من لم يبحث عن الأثر. بل يعمل الرأي والقياس فربما كان ذلك القياس فاسد الاعتبار لمخالفته للأدلة. ومن ها هنا بدأ التراشق بالتهم والتنابز بالألقاب من الفريقين فتجاوزوا الحد ووقعوا فيما حذرهم الله ورسوله ﷺ منه.

فالواجب أن يعرف كل فريق فضل الفريق الآخر ويحفظ له حقه. فالمحدثون ـ جزاهم الله خيراً ـ هم الذين جمعوا السنة وضبطوها وميزوا بين صحيحها وسقيمها بعد جهود ومشقة في الرحلة من قطر إلىٰ آخر.

والفقهاء ـ جزاهم الله خيراً ـ هم الذين عنوا بفهمها واستنباط ما فيها من فقه وأحكام وجمعوا بين الأدلة التي يظهر فيها التعارض.

إذا علمت هذا فاعلم أن خيراً من الفريقين المذكورين هو من جمع بين الرواية والدراية (وهم المحدثون الفقهاء) منهـم من جعل همه في كتابه الحديث ولم يعتن بفقه الحديث ولا بدرجته (صحه وضعفاً) وإنما أكبر الهم عندهم الاستكثار من الأسانيد وكذلك المتفقهة الذين لا يبنون فقههم علىٰ الحديث والآثار. فعليك أخي في الله أن تجمع بين الفنين (فن الرواية وفن الدراية).

قال الزمخشري (العلم مدينة أحد بابيها الرواية والثاني الدراية)[١].

ويمكن أن يتلخص في هذه النقاط:

١ ـ أن الفضل الكبير ثابت لكل من المحدثين والفقهاء والمشتغلين بالحديث والفقه. لأن الفريق الأول قام بجمع السنة وضبطها ونقلها وتمييز صحيحها من سقيمها. ولأن الفريق الثاني عنى بفهمها واستنباط ما فيها من أحكام لتكون

---

(١) عن كتاب الشيخ العباد (دراسة حديث نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي) ص ٢.

تشريعاً للمسلمين وأن كل فريق منهما بحاجة إلى ما عند الفريق الآخر.

٢ ــ أنه قد يحمل الحديث من يكون له حافظاً ولا يكون فيه فقيهاً.

٣ ــ أن الإكثار من كتب الحديث وروايته لا يصير الرجل فقيهاً.

٤ ــ إن كثيراً من كتبة الحديث والمشتغلين به ليس همهم إلّا جمع الحديث والتكاثر بالأسانيد بدون التعريج على فهم أو معرفة صحيحه من سقيمه وهذا هو الذي جر بعض المتفقهة إلى الطعن فيهم وفي المحدثين.

٥ ــ إن بعض المتفقهين لا يعرجون في استنباطاتهم علىٰ الحديث والآثار وهذا الرأي جر بعض المشتغلين بالحديث إلى الطعن فيهم وفي الفقهاء.

٦ ــ إن طائفة أهل الحديث محتاجة ومفتقرة إلى طائفة أهل الفقه والعكس.

٧ ــ إن المحدثين والفقهاء مثلهم كمثل الصيدلاني والطبيب أو المهندس والبناء فحامل السنة بلغ الفقيه المادة التي يعمل فكره في فهمها والاستنباط منها. والفقيه توصل إلى استخراج ما تتضمنه السنة من فقه وما تحويه من هداية.

وللراوي مثل أجر الفقيه ومن استفاد من هذا الفقه لأن من دل على خير فله مثل أجر فاعله.

٨ ــ أنه علىٰ أصحاب الحديث أن يهتموا بفقه الحديث وذلك بأن ينعموا النظر فيما جمعوه وأن يهتموا بمجالسة الفقهاء والاستفادة من مواهبهم وعليهم أيضاً ألا يذموا مستعملي القياس من الفقهاء وأن يميزوا بين محمود الرأي ومذمومه وبين القياس الصحيح والقياس الفاسد.

٩ ــ إنه علىٰ المتفقهة أن يعتنوا بالحديث ويعولوا عليه في استنباطاتهم ويعرفوا صحيحه من سقيمه وألا يرغبوا عن سماع السنن من المحدثين وألا يصفوهم بأنهم أغمار وحملة أسفار.

١٠ ــ إن النصائح المقدمة من الإمام الخطيب البغدادي والإمام ابن الجوزي والخطاب وغيرهم ليس المراد بها أئمة المسلمين من الفقهاء والمحدثين وإنما المقصود بها أتباع الفريقين من المتفقهة وكتبة الحديث الذين تعصبوا تعصباً لا يرضىٰ به الأئمة من الفقهاء والمحدثين.

١١ ــ إن علىٰ الفريقين أن يعرفوا أهمية التفقه في الدين لأن به يميز بين الحلال والحرام ويسير المرء في عبادة ربه علىٰ بصيرة.

١٢ ـ وإن على كل فريق أن يخفض جناحه للآخر فلا يقدح بعضهم ببعض إذا رأىٰ أحد الفريقين قله فقه الآخر فإن مواهب الناس في الفقه متفاوتة كما وضح في حديث (نضر الله امرءاً. . .).

١٣ ـ على المعنيين بالحديث والأثر أن يذعنوا أن الفقه أفضل من الحفظ وإن كان في كل فضل.

١٤ ـ إن علىٰ الفريقين أن يقروا بالتخصص فإن الناس ينقسمون إلى حافظ وإلى فقيه وأكمل منهما من جمع الله له بين الحفظ والفهم، كالإمام البخاري رحمه الله حيث جمع في صحيحه بين الرواية والدراية فقد ضمن تراجم أبوابه من الفقه الواسع والفهم الدقيق. ويقابله في الجانب الآخر من لا حفظ لديه ولا فهم.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وكتب/ عقيل المقطري
تعز ـ اليمن

فهرس الموضوعات